الفصل الخامس والعشرون

مقتل عمر

عشر سنوات وأشهر قضاها عمر أميراً للمؤمنين ، متجرداً لله ولدين الله ، منكراً نفسه وأهله ، متوجهاً بكل عقله وقلبه وجوارحه لينهض بالعبء العظيم الذى ألقاه القدر على عاتقه ؛ فكان القائد الأعلى للجيش ؛ والفقيه الأكبر بين فقهاء المسلمين ؛ والمجتهد الذى يرجع الكل إلى رأيه ، ويقر الكل اجتهاده ؛ والقاضى النزيه العادل الذى يفصل فى الخصومات ، ويأخذ للضعيف حقه من القوى ؛ والأب البار الرحيم بالمسلمين جميعاً ، صغيرهم قبل كبيرهم ، وضعيفهم قبل قويهم ، وفقيرهم قبل غنيهم ؛ والمؤمن الصادق الإيمان بالله ورسوله صدقاً زاده اعتداداً بنفسه ، واعتزازاً برأيه ؛ والسياسىَّ المحنَّكَ الذى يعرف ما يريد ، ولا يريد إلا ما يقدر عليه ، فإذا ازدادت قدرته ، انفسحت إرادته ؛ والإدارىَّ الحكيم يَسَّرَتْ له حكمته أن يسوس الأمم المتباينة فى الجنس واللغة والدين ، ويدبّر أمورها تدبيراً ألانها له ، وزادها تعلقاً به . لاعجبَ وذلك شأنُه أن اندفع المسلمون فى عهده يحرِّكهم صدق إيمانهم ، وعظيم حرصهم على الاستشهاد فى سبيل الله ، ففتحوا فارس والعراق والشام ومصر وما وراءها ، ولا عجبَ وذلك شأنه أن أصبح العرب محطّ أنظار العالم من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، وكانوا قبل إسلامهم أمة بادية تعيش لنفسها وتخضع لنفوذ غيرها .

ما أعظم الجهدَ الذى بذله عمر لينهض خلالَ هذه السنوات العشر بهذا العبء العظيم ! وقد رأيتَ صوراً من هذا الجهد مجلوّة فى هذا الكتاب ، وهذه الصور لم تَصِف مع ذلك جهد عمر كله . وهل يستطيع كاتب أن يحيط بكل دقيق وجليل حين يصوّر حياة الرجل العظيم ! إنما ينظر الكاتب إلى هذه الحياة من أحد جوانبها ، وحَسْبُه أن يلقى على هذا الجانب من الضياء مايُبرزه فى وضوح وجلاء . وأنا لم أقصد من هذا الكتاب إلا ما قصدتُ إليه من كتاب أبى بكر : أن أؤرّخ للإمبراطورية الإسلامية . لذلك لم أقف من حياة كلا الرجلين إلا عندما يتصل بقيام الإمبراطورية وانفساح رقعتها .

كم كانت سنّ عمر بعد هذه السنوات العشر التى قضاها أميراً للمؤمنين ؟ أشرت من

قبل إلى اختلاف المؤرخين فى هذا الأمر . يقول ابن الأثير : «كان مولده قبل الفِجَار بأربع سنين ، وكان عمره خمساً وخمسين سنة ، وقيل ستين سنة ، وقيل ثلاثاً وستين سنة وأشهراً ، وهو الصحيح ، وقيل إحدى وستين سنة » . وفى رواية أنه كان خمساً وستين . ومن هذه الروايات كلها يظهر أنه كان بين الخامسة والخمسين والخامسة والستين . وأكبر الظن أنه كان قدتجاوز الستين . أما وقد شقّ على نفسه وآثر الشظف فى حياته طيلةَ خلافته حتى خاف قومه عليه الموت عام المجاعة، فطبيعى أن تُثقله هذه السن أكثر مما تُثقل من عرف الرَّفْه والدَّعة . وكانت جسامة تَبِعاته تزيدها ثقلاً عليه . وتجعله أكثر شعوراً بوطأة عبئها على كاهله ، ثم لايدعوه ذلك إلى الترفيه عن نفسه أو التخفيف من أعبائه فى الاضطلاع بكل ماجلّ ودقّ من شئون الإمبراطورية فى عهده .

كان عمر كما قدمنا يحج كل عام ويدعو ولاته وعمّاله فيوافونه أيام الحج بمكة كى يحاسبهم على أعمالهم ، ويُشاركهم فى تدبير شئون ولايتهم . وقد حج كعادته فى هذه السنة الثالثة والعشرين للهجرة ؛ وحج معه أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما قضى مناسكه وأفاض من مِنىً ، أناخ بالأبطح فكوّم كومة من بطحاء ألقى عليها بطرف ثوبه ؛ ثم استلقى عليها ورفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم كَبِرتْ سنى ورقّ عظمى وضعُفت قوّتى وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى إليك غير عاجز ولا ملوم ! » . وهذا دعاء لايقوله رجل قبل الستين ، وبخاصة إذا كان سليم البنية قويَّها مثل ما كان عمر .

ولعله ، وقد شعر بدبيب الوهن فى جسمه فكان يستعجل لقاء ربه ، قد كان طويل التفكر فى هذا المصير . روى ابن سعد فى الطبقات أنه لم يلبث حين نزل المدينة عائداً من حجه أن خطب الناس يوم الجمعة ، فذكر نبىَّ الله وذكر أبا بكر ، ثم قال : « أيها الناس ! إنى أُرِيت رُؤْيَا لا أراها إلا لحضور أجلى . رأيت ديكاً أحمر نقرنى نقرتين » ، وقال : « أيها الناس قد فُرِضَتْ لكم الفرائض وسُنّتْ لكم السُّنَنُ وتُرِكتم على الواضحة إلا أن تَضِلُّوا بالناس يميناً وشمالا [1] » . فهذه العبارة الأخيرة أشبه بوصية الشاعر بدنو الأجل منها بعظة من يحض على الخير . وأشبه بالوصية كذلك ، فى تلك الخطبة قوله : « إنى لم أدع شيئاً هو أهم إلىّ من الكلالة ، وما راجعت رسول الله فى

(١) أورد ابن سعد خطباً متفرقة نسب إلى عمر أنه قالها يوم الجمعة بعد عودته من هذا الحج الأخير . وتقع آخر جمعة من ذى الحجة لذلك العام فى اليوم التاسع والعشرين منه ، ولم يخطب فيها عمر كما سنرى من بعد وهو قد أفاض من منى فى الثانى عشر من ذى الحجة فلو أنه لم يقم بمكة وعاد توا إلى المدينة لبلغها بعد الخامس عشر من ذى الحجة ، ولما بقى يوم جمعة فى ذلك الشهر إلا اليوم الثانى والعشرون وهو اليوم الذى يمكن أن يكون عمر قد خطب فيه .

شيء ما راجعته فى الكلالة ، وما أغلظ علىّ فى شيء منذ صاحبته ما أغلظ لى فى الكلالة ، حتى طعن بأصبعه فى بطنى فقال لى : (ياعمر تكفيك الآية التى فى آخر النساء) وإن أعش أقض فيها بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لايقرأ القرآن » . ثم قال : « اللهم إنى أشهدك على أمراء الأمصار ! فإني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، ويعدلوا عليهم ، ويقسموا فيئهم بينهم ، ويرفعوا إلىّ ما أشكل عليهم من أمرهم » . قال جويرية بن قدامة من بنى تميم : « حججت عام توفى عمر ، فأتى المدينة فخطب فقال : رأيت كأن ديكاً نقرنى ، فما عاش إلا تلك الحجة حتى طُعِن » .

وشعور عمر بدنو أجله وليس به مرض ، وليس به إلا شعور بضعف قوته ووهن جسمه ، يدعو إلى شيء غير قليل من التفكير فقل من الناس من تحدثه نفسه وهو فى صحته بمثل ماحدثت عمر نفسه ، وإن شعر بعضهم فى أول مرضه الأخير بدنو ساعته . أفكان عمر فى هذه محدَّثاً ألهم ما سيكون قبل أن يكون ؟ أم أن كبر سنه وضعف قوته وانتشار رعيته جعله يفكر فى دنو أجله ، ويدعو الله أن يضمه إليه ؟ أنت فى حل من أن تختار لنفسك الجواب . أما المؤرخون المسلمون فساقوا فى هذا الأمر روايات نقصها عليك بعد أن نفصل مقتل أمير المؤمنين .

خرج عمر من منزله قبل مطلع الشمس من يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، يؤمّ الناس لصلاة الفجر . وكان يوكّل رجالاً فى المسجد بالصفوف يسوّونها قُبَيْل كل صلاة ، فإذا استوت جاء هو فنظر إلى الصفّ الأول فإذا رأى فيه متقدماً أو متأخراً علاه بالدِّرَّة ، حتى إذا انتظم الجميع فى أماكنهم كبَّر للصلاة . ودخل فى تلك الساعة من ذلك اليوم ولما يكد يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فلما بدأ ينوى للصلاة ليكبر إذا رجلٌ ظهر فجأة قُبالته ، فطعنه بخَنْجره ثلاث طعنات أو ست طعنات ، إحداها تحت سُرَّته . وأحس عمر حَرّ السلاح ، فالتفت إلى المصلّين باسطاً يديه يقول : « أدركوا الكلب فقد قتلنى ! » . وكان الكلب أبا لؤلؤة النصرانى فيروز غلام المغيرة ، وكان فارسياً ، أُسِرَ فى نَهَاوَنْد ثم وقع فى ملك المغيرة بن شعبة . وقد جاء إلى المسجد متعمداً قَتْلَ عمر فى هذه الساعة المبكرة من الغلَس يخبئ تحت ردائه خنجراً قَبْضَتُه فى وسطه وله نَصلانِ حادَّان . واختبأ فى أحد أركان المسجد حتى إذا بدأت الصلاة ارتكب فعلته ، ثم اندفع يريد الفرار نجاة بنفسه . وماج الناسُ مضطربين لما سمعوا ، وأقبل كثيرون منهم على الكلب يريدون القبض عليه والتنكيل به . ولم يَدَعْهم فيروز يأخذون

بتلابيبه . بل جعل يطعنهم يَمنة ويسرة حتى طعن اثنى عشر ، مات منهم ستة على قول وتسعة على قول آخر . ثم إن رجلاً أتاه من ورائه فألقى عليه رداءه وطرحه أرضاً ، وأيقن فيروز أنه مقتول لا محالة مكانه ، فانتحر بالخنجر الذى ضرب به أمير المؤمنين .

كانت الطعنة التى أصابت عمر تحت سُرَّته قد قطعت الصِّفَاق والأمعاء ، وكانت لذلك قاتلة . قيل إن عمر لم يستطع الوقوف من حرها ، بل سقط طريحاً ، فاستخلف عبد الرحمن بن عوف على الصلاة بالناس ، فصلّى بهم . بأقصر سورتين فى القرآن : العصر والكوثر . وقيل بل ماج الناس بعضهم فى بعض لمصاب عمر ومصاب الذين طُعِنوا من حوله ، واشتد اضطرابهم حين رأوا عمر محمولا إلى داره فى جوار المسجد ، وظلوا فى مرجهم واضطرابهم حتى قال قائل : الصلاةَ عباد الله ! قد طلعت الشمس ؟ فدفعوا عبد الرحمن بن عوف فصلّى بأقصر سورتين .

والرواية الثانية هى الراجحة لاريب ؛ فما كان الناس لتستوى صفوفهم للصلاة من جديد وهم فى مرجهم واضطرابهم ، وأمير المؤمنين طريح يدفق جرحه دماً أمامهم ، ودماء المطعونين تسيل من حولهم ، والقاتل صريع بينهم ! ولو أنّا استطعنا أن نتصوّر عمر يفكر ، مع ما أصابه من طعنات ، فى استخلاف عبد الرحمن بن عوف على الصلاة — وهو تصوّر بعيد عن مألوف العقل — لما استطعنا أن نتصور الناس فى هذه الساعة تلتئم صفوفهم وهم فيما هم فيه من روع وفزع . لا بد إذاً أن يكون عمر قد حُمل إلى داره فى جوار المسجد واعياً أوفاقد الوعى من هول طعناته ، وقد أحاط الناس به حين أدخل إلى أهله ، وقد أسعف الذين أصيبوا وأخرجوا من المسجد أو نقلوا إلى بعض جوانبه . وأخرجت جثة فيروز إلى البطيحاء ، ثم عاد الناس إلى المسجد يتحدثون فيما وقع حتى نبههم إلى الصلاة من نبَّههم ، فدفعوا عبد الرحمن بن عوف فصلّى بهم .

فرغ الناس من الصلاة وتفرقوا فى جوانب المسجد وفى بُطَيْحائه ، ولا حديث لهم إلا هذا الحادث المروّع الذى وقع بأعينهم . وانتشر الخبر فى المدينة انتشار البرق ، فاستيقظ من أهلها من لم يكن قد استيقظ ، وأسرعوا جميعاً ، رجالا ونساء وصبياناً ، يريدون أن يقفوا على جليّة الخبر فى هذا الأمر الجلل . ونقل المصابون الآخرون إلى منازلهم ، ومنهم من أسلم الروح أو كاد ، ومنهم من يتنزَّى ألماً من جراحه . ودخل كبار أهل الرأى على عمر مستفسرين . قال عبد الله بن عباس : « فلم أزل عند عمر ولم يزل فى غشية واحدة حتى أسفر الصبح ؛ فلما أسفر أفاق فنظر فى وجوهنا فقال : أصلّى الناس ؟ قلت : نعم ،

فقال ، لا إسلام لمن ترك الصلاة » . ثم إن ابن عباس خرج إجابة لرغبة عمر ، فنادى فى الناس : أيها الناس ! إن أمير المؤمنين يقول . أعن ملأ منكم هذا ؟ وفزع الناس لسماع هذه الكلمات موجَّهة إليهم ، فصاحوا كلهم بلسان واحد : معاذ الله ما علمنا ولا اطلعنا . وكيف يكون ذلك وإنهم لو علموا لافتدوا عمر بأبنائهم وأرواحهم ! وسألهم ابن عباس : فمن طعن أمير المؤمنين ؟ قالوا : طعنه عدوّ الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة .

كان عمر ممدداً على فراشه ينتظر رجوع ابن عباس بالجواب عمَّا سأل عنه ، وينتظر طبيباً طلب إلى أهله أن يدعوه إليه . فلما رجع ابن عباس وحدّثه بحديث الناس ، وذكر له أن أبا لؤلؤة هو الذى طعنه وطعن معه رهطاً ثم قتل نفسه ، قال : « الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة سجدها له قط ! ما كانت العرب لتقتلنى ! ».

وجاء طبيب من العرب فسقى عمر نبيذاً ، فأشبه النبيذ الدم حين خرج من الطعنة التى تحت السُرّة ؛ فدعا عبد الله بن عمر طبيباً من الأنصار ، ثم آخر من بنى معاوية فسقى عمر لبناً فخرج اللبن من الطعنة أبيض لم يتغير لونه ، فقال : ياأمير المؤمنين : اعْهَدْ . يريد أنه ميت لامحالة : قال عمر : صَدَقنى أخو بنى معاوية ، ولو قلتَ غير ذلك لكذّبتك . وتولى الحاضرين الجزعُ لقول الطبيب فبكوا ، فقال عمر : « لاتبكوا علينا ! مَنْ كان باكياً فليخرج . ألم تسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعذَّب الميت ببكاء أهله عليه ! » .

بينا كان عمر يسمع ما نقله ابن عباس عن الناس ، ثم يستشير الطبيب ويصغى لنذيره ، كان المسلمون بالمسجد وما حوله يتحدَّثون جماعات ، يسأل بعضهم بعضاً عما دفع أبا لؤلؤة لارتكاب فعلته الشنعاء . وقد أورد المؤرخون فى ذلك روايات لعلها بعض ماجرت به أحاديث هذه الجماعات ، ولعل بعضهم كان يناقش هذه الروايات ، فيقبل بعضها ، وينفى بعضها ، ويرى بعضها حديث خرافة . وسأبسط هذه الروايات جميعاً أمام نظر القارئ ليكون له فيها رأىٌ ، وإن رأيت واجباً علىَّ قبل روايتها أن أعلن اقتناعى بأن مقتل عمر أدَّت إليه مؤامرة استغرق تدبيرها زمناً قبل الحادث ، ولم يتيسر للحاضرين بالمسجد على أثره أن يتبينوا دليلها ، ثم قام هذا الدليل من بعدُ ، فكان لقيامه من الأثر مانَقُصُّ نبأه بعد حين .

روى ابن سعد فى الطبقات حديثاً أسنده إلى جُبَيْر بن مُطْعِمٍ أن عمر كان واقفاً فى حجَّته الأخيرة على جبال عرفة إذ سمع رجلا يصرخ فيقول : ياخليفة ، ياخليفة ؟ فسمعه

رجل آخر وهم يعتافون فقال : مالك ؟ فكّ الله لهواتك ؟ فصخب جُبير على هذا الرجل قـائلاً لا تسبَّه . فلما كان الغد وقف عمر على العقبة يرميها وجُبير معـه إذ أصابت رأس عمر حصاة عابرة فقصدتْ ، وسمع جبير رجلا من الجبل يقول : « أشْعِرْتُ ورب الكعبة لا يقف عمر هذا الموقف بعد العام أبداً ؟ » . وكان هذا هو الذى صرخ بالأمس : « يا خليفة ياخليفة » وروى ابن سعد كذلك عن أم كلثوم بنت أبى بكر عن أختها عائشة أم المؤمنين أنها قالت : لما كانت آخر حِجَّة حجَّها عمر بأمهات المؤمنين وصدرنا عن عرفة مررت بالمحَصَّب ، فسمعت رجلا على راحلته يقول : أين كان عمر أمير المؤمنين ؟ فسمعت رجلا آخر يقول : هاهنا كان أمير المؤمنين ؛ فأناخ راحلته ثم رفع عقيرته فقال :

عَلَيْك سَلامٌ مِنْ إمامٍ وبارَكـتْ   يَد اللهِ فى ذاك الأَديم المُمـــزق
فمَنْ يسْعَ أَو يرْكبْ جَناحَىْ نَعَامة   لِيُدْرِك ماقدَمْتَ بالأَمس يُسْبَق
قضيت أُموراً ثم غادرتَ بعدهاً   بوائقَ فى أكمامهـــا لم تُفَتَّـــق

فلم يَحرُكْ ذاك الراكب ولم يُدْرَ من هو ، فكنا نتحدث أنه من الجنّ ، فقدِم عمر من تلك الحِجَّة فطُعن فمات .

لا أرانى بحاجة إلى التعليق على هذه الروايات . ويتعذر الظن بأن هذا الذى قيل إنه من الجن ، وذاك الذى قال : لايقف عمر هذا الموقف بعد العام أبداً ، وقيل إنه كان عائفاً ، قد كان أيهما على علم بشىء مما كان يدور بخاطر فيروز أو كان يدبّر معه . لكن ما روُى من الأنباء ، عما حدث بعد رجوع عمر إلى المدينة قبَيل مقتله ، جدير بقَدْرٍ من التمحيص ، لعله يدلنا على حقيقة لم يقطع بها أحد من المؤرخين الأولين .

روى الطبرى وابن الأثير وغيرهما أن عمر خرج يوماً بعد عوده من حجه يطوف بالسوق ، فلقيه أبو لؤلؤة فقال له : يا أمير المؤمنين أعِدْنى على المغيرة بن شعبة فإن علىَّ خراجاً كثيراً . قال عمر : وكم خراجك ؟ قال : درهمان فى كل يوم . قال عمر : وما صناعتك قال : نجّار ، نقّاش ، حدّاد . قال عمر : فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الأعمال ، قد بلغنى أنك تقول ، لو أردت أن أعمل رحىً تطحن بالريح فعلتُ ! قال : نعم . قال عمر : فاعمل لى رحى . قال : لئن سَلِمتُ لأعملنّ لك رحى يتحدّث بها مَنْ بالمشرق والمغرب ! ثم انصرف عنه . قال عمر : لقد توعدنى العبد آنفاً !

ودخل عمر منزله . فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال له : يا أمير المؤمنين اعْهَدْ فإنك ميت فى ثلاثة أيام . وكان كعب هذا من كبار أحبار اليهود فى عهـد

النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يتردّد عليه مظهراً الميل إلى الإسلام ، مرجئاً إعلان إسلامه حتى يتحقق من كل الأمارات التى يجدها فى كتب قومه عن النبي العربّى وأصحابه ، فلما انتهى أمر الخلافة إلى عثمان أعلن إسلامه . وعجب عمر لنذير كعب ، فسأله . وما يُدريك ؟ قال : أجده فى كتاب الله عز وجل : التوراة ودهش عمر لهذا الكلام فقال : الله ! إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ! قال كعب : لا ، ولكنى أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك . وإذ كان عمر لا يحسُّ وجعاً ولا ألماً فقد زادت دهشته لهذا الحديث ، ثم لم يُعره عناية خاصة .

فلما كان من الغد جاءه كعب فقال : يا أمير المؤمنين ، ذهب يوم وبقى يـومان . وفى الغداة من ذلك اليوم قال له : ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها . وفى فجر الغداة طعن أبو لؤلؤة عمر طعناته المميتة . فلما دخل الناس على أمير المؤمنين ودخل كعب معهم ورآه عمر قال :

توعَّدنى كعـبٌ ثلاثـا أَعـدَّها ولا شكَّ أَنَّ القـول ما قال لى كَعْبُ
وما بى حِذارُ الموت إنِّى لَميِّـتٌ ولكن حِذارُ الذنب يَتبعهُ الذَّنْـبُ

ساق سير وليم مور قصة كعب هذه فى كتابه (الخلافة الأولى) وأردفها بقوله : « يتعذر علينا أن نعرف كيف نشأت هذه القصة العجيبة . وربما أنذر كعب عمر حين رأى مابدا على أبى لؤلؤة من مظهر التحدى والوعيد » . والذى نستطيع نحن أن نستخلصه من حديث أبى لؤلؤة مع عمر ، ومن قصة كعب ، أن الفارسى توعّد أمير المؤمنين ، وأن اليهودى عيَّن الموعد الذى تم فيه القتل قبل حدوثه بثلاثة أيام . وما إخال أحداً يظن أن الكتب السماوية تعيِّن الأحداث التى تقع لأفراد الناس بمثل هذه الدقّة ؛ فهذه الكتب كلها تُرجعُ علم الغيب إلى الله وحده . لابدّ إذاً أن يكون كعب عرف سرّ ما كان يجرى ، فوجَّه النذير إلى عمر . وأغفل عمر أمر هذا النذير بعد أن توعَّده أبولؤلؤة بما توعده به فحدث ماحدث . ونذير كعب وطعنات أبى لؤلؤة تدلّ على أن فى الأمر سرًّا لم يظهر ساعة ارتكاب الجريمة ، لكنه ظهر من بعد ، وسنبيِّنه فى موضعه .

كان الناس فى المسجد يتساءلون عما دفع أبا لؤلؤة لارتكاب جريمته ، وكان عمر فى داره ممدَّداً على فراشه ، يشير الطبيب عليه بأن يَعْهَد ، ويتحدّث إليه كبار المسلمين فى هذا الذى أصابه وأصاب المسلمين فيه ، وفيما يتوقعونه إذا قضى الله فى الخليفة العظيم بقضائه . وكان التفكير فيمن يخلف عمر أكبر ما يشغل بالهم وبال عمر . أتراه يصنع

صنيع أبى بكر فيختار خليفته ، أم يدعهم يصنعون ما صنعوا فى اجتماعهم بسقيفة بنى ساعدة حين اختار الله إليه رسوله ؟ روى أن ابن عمر قال لعمر بن الخطاب : لو استحلفت ؟ قال : مَنْ ؟ قال : تجتهد فإنك لست لهم برب ! أرأيت لو أنك بَعَثت إلى قَيِّم أرضك ، ألم تكن تحب أن يستخلف رجلا حتى يرجع إلى الأرض ؟ قال بلى . قال : أرأيت لو بعثتَ إلى راعى غنمك ، ألم تكن تحب أن يستخلف رجلا حتى يرجع ؟ قال عمر : « إن أستَخْلِفْ فقد استخلف من هو خيرٌ منى ، وإن أترك فقد ترك مَنْ هو خيرٌ منى ». وروى أن سعد بن زيد بن عمرو قال لعمر : إنك لو أشرت برجل من المسلمين ائتمنك الناس . فقال عمر : إنى قد رأيت من أصحابى حرصاً سيئاً . ثم قال : لو أدركنى أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به : سالم مولى أبى حُذَيْفَة وأبو عُبَيْدة بن الجَرّاح . وفى رواية أن عمر قال : مَنْ أسْتَخْلِفُ ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح ! فقال له رجل : ياأمير المؤمنين ، فأين أنت من عبد الله بن عمر ؟ وأجابه عمر : قاتلك الله ! والله ما أردتَ الله بهذا ! أستخلف رجلا ليس يُحسن أن يطلِّق امرأته ! ويروى كذلك أن عمر دعا إليه عبدالرحمن ابن عوف بعد أن حُمِل إلى داره إثر طعنته ، فقال له : إنى أريد أن أعهد إليك ، قال عبد الرحمن يا أمير المؤمنين ، إن أشرتَ علىّ قبلتُ منك . قال عمر وماتريد ؟ وسأله ابن عوف : أنشُدك الله ! أتشير علىّ بذلك ؟ قال عمر : اللهم لا ! وكانت كلمة عبد الرحمن بعد هذه المشورة أن قال : والله لا أدخل فيه أبداً !

تدل هذه الروايات على أن اختيار الخليفة لم يكن له نظام مقرر فى الإسلام ، وتدلّ كذلك على أن المسلمين كانوا قد بدءوا ، لأول ما انفسحت الإمبراطورية أمامهم ، ينافس بعضهم بعضاً ويَنْفَس بعضهم على بعض . وذلك قول عمر : « إنى قد رأيت من أصحابى حرصاً سيئاً » . وهذا الحرص السيئ هو الذى جعله يتردّد فى استخلاف أحدهم مكانه على نحو ما صنع أبو بكر حين استخلفه . فأما قوله إنه كان يستخلف سالم مولى أبى حذَيفة أو أبا عبيدة بن الجراح لو أن أحدهما كان حيًّا ، فإنما قصد به — أكبر الظن — إلى التخلّى عن موقف دقّ حتى على عمر الذى عرف طِيلة حياته بالصراحة والحزم وعزم الأمور .

لكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن يدع الأمر مرسلا يضطرب بين عامّة الناس وخاصّتهم ، بعد أن رأى ما حدث بالسقيفة إثر وفاة الرسول . والحال اليوم أكثر مما كانت لذلك العهد دقّة ؛ فقد اشترك العرب جميعاً فى محاربة الفرس والروم ، وأصبح لكل

قبيلة بذلك أن تزعم لنفسها من حق الاشتراك فى اختيار الخليفة ما للمهاجرين والأنصار . هذا إن لم تذهب بعض القبائل إلى ادعاء الحق فى ترشيح زعيمها لمقام الخلافة . وفى هذا الأمر من الخطر على العرب وعلى الإمبراطورية الناشئة ما يُدركه عمر أكثر مما يدركه غيره . لذلك لم يلبث ، بعد قليل من إعمال الرأى ، أن جعل الخلافة من بعده شُورى فى ستة ؛ هم عثمان بن عفّان ، وعلىّ بن أبى طالب ، والزُّبير بن العوّام ، وطلحة بن عُبَيْدِ الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص . ومن المأثور عنه فى استخلافهم قوله : « لا أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين تُوفِّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ؛ فأيُّهم استُخْلِف فهو الخليفة من بعدى » . وبعد أن سمّى هؤلاء الستة أردف : « فإن أصابت سعداً فذاك ، وإلا فأيُّهم استُخْلِف فليستعن به ؛ فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة (١) » .

عرف الناس ماصنع عمر فسكنوا إليه . ودعا عمر هؤلاء النفر الذين جعل الخلافة شُورى بينهم فقال : « أنْشُدُك الله يا علىّ إن وَلِيتَ من أمور الناس شيئاً أن تحمل بنى هاشم على رِقاب الناس ! أنشدك الله يا عثمان إن وَلِيتَ من أمور الناس شيئاً أن تحمل بنى أبى مُعَيْط على رقاب الناس ! أنشدك الله يا سعد إن وَلِيتَ من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقاربك على رقاب الناس ! وناشد الآخرين مثل هذه المناشدة ، ثم قال : قوموا فتشاوروا ثم اقضوا أمركم ، وليصل بالناس صهيب .

كان عمر يود لو يتم القوم التشاور ، ويختاروا خليفته قبل أن يُقْبَضَ ، ليموت مطمئنًّا

---

(١) أجمل الطبرى وابن الأثير قصة الشورى وكيف استخلفهم عمر فيما يلى : « قيل لعمر ، لما طعن : ياأمير المؤمنين لو استخلفت ؟ فقال : لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته وقلت لربى إن سألنى : سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة . ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لاستخلفته وقلت لربى إن سألنى : سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحبّ لله تعالى : قال رجل : أدلك على عبد الله بن عمر . فقال : قاتلك الله ! والله ما أردت الله بهذا ! ويحك كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته . إنه لاأرب لنا فى أموركم ، فما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى . إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً فقد صرف عنا . بحسب آل عمران يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمة محمد ! أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، وإن نجوت كفافاً لاوزر ولا أجر فإنى لسعيد ! أنظر ، فإن أستخلف فقد أستخلف من هو خير منى ، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى ولن يضيع الله دينه . وخرج القوم من عنده ثم راجعوا فقالوا . يا أمير المؤمنين لو عهدت عهداً فقال : كنت أجمعت بعد مقالتى أن أنظر فأولى رجلا منكم ، لكنى ماأردت أن أحملها حياً وميتاً . فعليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم من أهل الجنة . وذكر الستة » .

وذكر ابن قتيبة فى « الإمامة والسياسة » أن عمر قال : « لو أدركت معاذ بن جبل استخلفته . ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته » ، وروى فى شأنهما أحاديث عن النبى يعتذر بها إلى ربه إن سأله . وأنا فى شك من هذه الرواية وبخاصة فى أمر خالد ؛ فما كان عمر يستخلفه على إمارة المؤمنين ، وهو هو الذى عزله عن إمارة قنسرين .

إلى مصير الإسلام ومصير الإمبراطورية من بعده . لذا جعل ابنه عبد الله معهم يشاورونه وليس له من الأمر شيء ليكون الصلة بينهم وبينه . قال عبد الله بن عمر : فقاموا يتشاورون ، فدعانى عثمان مرة أو مرتين ليدخلنى فى الأمر ، ولا والله ما أحِب أنى كنت فيه ، علماً أنه سيكون فى أمرهم ما قال أبى . والله لَقَلَّما رأيته يحرِّك شفتيه بشيء قط إلا كان حقًّا . فلما أكثر عثمان علىّ قلت له : ألا تعقلون ! أتؤمِّرون وأمير المؤمنين حىّ ! فوالله لكأنى أيقظت عمر من مَرْقده ، فقال : « أمهلوا ، فإن حدث بى حدث فليصل بكم صُهيب ثلاث ليال ، ثم أجمعوا أمركم ، فمن تأمّر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه » .

وكان طلحة بن عبيد الله غائباً من المدينة يوم طُعِن عمر . لذلك قال بعد أن استمهل القوم : « انتظروا أخاكم طلحة ثلاثة أيام ، فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم » .

وكأنما خشى عمر أن يختلف القوم بينهم بعد موته ، فيؤدى اختلافهم إلى الثورة ؛ ينصر بنو هاشم عليًّا ، وينصر بنو أبى مُعَيْط عثمان ، وينتصر من الجند من ينتصر للزبير أو لطلحة أو لسعد ، وكلهم من كبار القوّاد . لذلك دعا إليه الأنصار وقال لهم : « أدخلوهم بيتاً ثلاثة أيام ، فإن استقاموا وإلا فادخلوا واضربوا أعناقهم » . ودعا أبو طلحة الأنصارى وكان من الشجعان المعدودين فقال له : « قم على بابهم فلا تَدَعْ أحداً يدخل إليهم » . وفى رواية أنه قال : « يا أبا طلحة ! كن فى خمسين من قومك الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى ، فإنهم فيما أحسب سيجتمعون فى بيت أحدهم ، فقُمْ على ذلك الباب بأصحابك ، فلا تترك أحداً يدخل عليهم ولا تتركهم يمضى اليوم الثالث حتى يؤمِّروا أحدهم . اللهم أنت خليفتى عليهم ! » .

ترى لو أن عمر استخلف واحداً بذاته من هؤلاء النفر الستة ، أكان المسلمون يُقِرُّون اختياره كما أقروا اختيار أبى بكر عمر ؟ ولو أن عمر اطمأن إلى هذا الأمر لما تردد دونه[1] ؛ لكن البوادر أمامه لم تكن تبعث على هذه الطمأنينة . لذلك قال للناس : « من تأمَّر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه » . وقد رضى الناس خلافة عثمان بعد عمر سنوات عدّة ، فلما طال به الأمد ضاقوا به ذرعاً فثاروا به وقتلوه . ومن بعد مقتله قامت الحرب الأهلية بين المسلمين ، واتصلت على السنين . وقيامها يشهد بأن عمر لم يكن مغالياً حين

(١) تجرى رواية بأن عمر قال : ليدخل هؤلاء القوم فى بيت ، فإذا اجتمعوا على رجل فمن خالفهم فاضربوا عنقه . فلما خرجوا من عنده قال : لو ولوها هذا الأجلح – يريد على بن أبى طالب – لسلك بهم الطريق فقال له ابنه : فما يمنعك ياأمير المؤمنين ؟ قال : أكره أن أتحملها حيا وميتا . وبعضهم ينفى هذه الرواية ويرى أنها وضعت من بعد لأغراض سياسية .

خشى مغبة الاختلاف بين القوم ، وبأنه كان مدركاً أشد الإدراك ما تنطوى عليه قلوبهم ، مقدراً أن العصبية القَبَلية التى سكنت ، منذ أظلّ الرسول بلوائه جزيرة العرب ، تؤذن بالظهـور من جديد ، وقدتجد فى فسحة الإمبراطورية ماينشرها ويؤجج ضرامها . ولذلك عالج الأمر بأن جعل الخلافة شورى فى هؤلاء الستة ، وكان هذا العلاج خير ما يواجه به الموقف لوقته . وقدنجح هذا العلاج طيلةَ عشر سنوات بعده . لكن البواعث التى تخوَّفها عمر كانت دائبة أثناء ذلك على تحريك الأهواء الأصيلة فى النفوس . وكثيراً ما طغت الأهواء على حكم العقل وحكمته ، فأدّت إلى مثل ما أدت إليه فى حياة المسلمين ، بعد خمس وعشرين سنة من وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

لم يَكْفِ عمر أن يجعل الشورى فى الستة الذين توفِّى رسول الله وهو عنهم راض ، بل حرص أن يعهد للخليفة من بعده بما يراه أقوم سياسة تطمئن بها أمور الدولة ويزداد بها عز الإسلام . وكان مما قاله فى ذلك : « أوصى الخليفةَ من بعدى بتقوى الله ، وبالمهاجرين الأوّلين أن يحفظ لهم حقهم وأن يعرف حرمتهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وغيظ العدو ، وجباة المال ألا يُؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاً منهم . وأوصيه بالأنصار الذين تبوّءوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم . وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يؤخذ من حواشى أموالهم فيُرَد على فقرائهم . وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يُوفىَ لهم بعهدهم وألاَ يُكَلّفوا إلا طاقتَهم ، وأن يقاتل مَنْ وراءهم » . ويضيف بعض المؤرخين إلى هذه الوصية أنه قال . « اللهم هل بلّغت ؟ لقد تركت الخليفة من بعدى على أنقى من الراحة » .

كان عمر يفكر منذ طعن فى مصير المسلمين ، وكان حريصاً على ألا يذر بعده من بادرات الرأى فى اجتهاده مالم يكن قد اطمأنَّ إليه ووثق بصحته . سُقْنا من قبل حديثه عن الكَلالة وما دار بينه وبين رسول الله فيها وقول رسول الله له : « تكفيـك الآية التى فى آخر النساء » . وهذه الآية هى قوله تعالى : (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم فِى الْكَلاَلَةِ ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِن كَانُوا إِخْـوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ، يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ، وَاللهُ بِكُـلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)[1]. وقد أثبتنا قول عمر فى خطبته الأخيرة : « وإن أعش أقض فى الكلالة بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن

---

(١) آية ١٧٦ سورة النساء .

ومن لايقرأ القرآن » . وكان قد كتب رأيه الذى اجتهده فى فريضة الجدّ على عَظم كتف عشية اليوم الذى طُعِن فيه . فلما عرف أن طعنته قاتلة قال لابنه عبد الله : « ائتنى بالكَتِفِ التى كتبت فيها شأن الجد بالأمس » . يريد أن يمحو ما كتب حتى لا يحتج به أحد من بعده . قال عبد الله : نحن نكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين . ولم يكن أيسر من أن يقوم عبد الله بالمحو وأن يدع أباه فى شغله بجراحه . لكن عمر أبى وقال : لا ؟ ولم يطمئن حتى جىء بالكتف فمحا الكتابة بيده .

وأنت تذكر أن عمر قد استفتح عهده أول خلافته فأمر الناس أن يردّوا سبايا أهل الردَّة إلى عشائرهم ، وقال لهم : « إنى كرهت أن يصير السبى سُنَّةً فى العرب » . وقد كان لهذا الأمر أثر أعظم الأثر فى امتداد الفتح . وأهل الردَّة جميعاً كانوا فى شبه الجزيرة . وكان من بطون العرب وقبائلها من نزح إلى الشام وإلى العراق ، ومن وقع أسيراً فى يد المسلمين فى أثناء الغزوات المتلاحقة التى تمت فيها ، فلما رأى عمر أنه مُوفٍ على أجله أراد أن يزيد وحدة العرب قوة ، ويزيد العرب بأنفسهم اعتزازاً . لذلك قال وهو على فراشه : « من أدرك وفاتى من سبى العرب فهو حرٌّ من مال الله » . ولم يكن هذا القول اجتهاداً منه خالف به سابق رأيه ، إنما هو تطبيق دقيق لقوله : « إنى كرهت أن يصير السبى سُنة فى العرب » . ولعله خشى ألا يطبِّق خليفته هذا الرأى الذى اجتهده يوم استُخْلِف ، فلم يُرِدْ أن يترك الدنيا قبل أن يتم ما بدأه ، وقبل أن يذر العرب جميعاً أحراراً .

فكّر عمر إذاً فى مصير المسلمين من بعده ، وفكر فيما كان من اجتهاده ، ثم فكر كذلك فيما عليه من دَينٍ لم يُرد أن يذر الدنيا قبل أن يكفل أداءه . ذلك أنه كان استسلف من بيت المال ستة وثمانين ألف درهم ، فدعا إليه ابنه عبد الله فذكرها له ثم قال : « بع فيها أموال عمر ، فإن وفت وإلا فسل بنى عدىّ ، فإن وفت وإلا فسل قريشاً ولا تَعدُهم » . وكان عبد الرحمن بن عوف يعلم ، كما كان يعلم غيره من المسلمين ، أن عمر لم يقترض هذه الأموال إلا لاشتغاله بأمر المسلمين ؛ لذلك قال له : ألا تستقرضها من بيت المال حتى تؤدِّيها ؟ . وأجابه عمر : « معاذ الله أن تقول أنت وأصحابك بعدى : أما نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر فَتعزُّونى بذلك فتتبعنى تَبِعته وأقعَ فى أمر لا ينجينى إلا المخرج منه ! » ثم قال لعبد الله بن عمر : اضمنها ، فضَمِنها . فلم يدفن عمر حتى أشهد بها ابنه على نفسه أهل الشورى وعدّة من الأنصار ، وما مضت جمعة حتى حمل عبد الله بن عمر المال إلى عثمان بن عفان وأحضر الشهود على البراءة بدفعه .

وفى رواية أنه أوصى بربع ماله لأم المؤمنين حفصة ابنته ، فإذا ماتت فإلى الأكابر من آل عمر .

فرغ عمر من حساب الدنيا ، فاتجه بتفكيره إلى ما يرجوه بعد موته . وكان أكبر همه أن يُدْفَن فى جوار صاحبيه رسول الله وأبي بكر فى بيت عائشة . وكان قد استأذنها من قبل فى ذلك فأذِنت له . فلما حضرته الوفاة قال : إذا متّ فاستأذِنوها ، فإن أذِنت وإلا فدعوها فإنى أخشى أن تكون أذِنت لى لسلطانى » . وفى رواية أن عمر لما طعن فأوصى قال لابنه : « اذهب ياعبد الله إلى عائشة أم المؤمنين فقل لها: يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين ، فإنى لست لهم اليوم بأمير ، يقول : تأذنين له أن يدفن مع صاحبيه ؟ » . فأتاها ابن عمر فوجدها قاعدة تبكى ، فسلّم عليها ثم قال : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ؟ قالت : « قد والله كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنّه به اليوم على نفسى ! » فلما رجع عبد الله وذكر لعمر أن عائشة أذِنت له قال : « ما كان شىء أهمّ إلىّ من ذلك المضجع . ياعبد الله بن عمر انظر ، إذا أنا متّ فاحملنى على سريرى ثم قف بى على الباب فقل : يستأذن عمر بن الخطّاب ، فإن أذنت لى فأدخلنى وإن لم تأذن فادفنّى فى مقابر المسلمين » .

جعل عمر بعد ذلك يحاسب نفسه عما قدّمت يداه ، فهو مقبل عما قليل على موقف هو أعسر المواقف وأشدّها ، ذلك موقفه بين يدى ربه يسأله عما قدّم وأخّر ، عما نوى وعما عمِل ، عما أضمر وأظهر . ترى ماذا أعد له ربه من مصير ؟ أتُذْهِب حسناته سيئاته ، أم تغلب السيئة الحسنة فيجزيه الله الجزاء الأوفى ؟ لقد كان فى وَجَلٍ من ذلك أىّ وجل . قال له أحد عوّاده : والله إنى لأرجو ألا تمَس النار جلدك أبداً ! فنظر إليه ، وقد ملأت العبرة عينيه حتى رَثِي له من كان حوله ، ثم قال له : « إنَّ علمك بذلك يا فلان لقليل . لو أن لى ما فى الأرض لافتديت به من هول المطّلَع ! » . وفى رواية أنه قال هذه العبارة الأخيرة وابن عباس عنده ، فقال له ابن عباس : والله إنى لأرجو ألا تراها إلا مقدار ما قال الله : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا) . إن كنت ما علمنا لأَميرَ المؤمنين وأَمينَ المؤمنين وسيد المؤمنين ، تقضى بكتاب الله وتقسم بالسويَّة » فأعجب هذا الكلام عمر فاستوى جالساً وقال : « أتشهد لى بهذا يا ابن عباس ! » فسكت ابن عباس ، فضرب عمر على كتفه وقال : اشهد لى بهذا يا بن عباس » . قال ابن عباس : « نَعَمْ ، أنا أشهد » .

والحق أن ما روى عن خوف عمر من هول الحساب يشهد له بثبات إيمانه وقوة يقينه

ومخافته الله مخافةً هى العُدَّة لمن صدق قصده وجهَ الله فى كل عمله . جاء الناس حين طعن يثنون عليه ويودّعونه ويدعونه أمير المؤمنين ، فقال : « أبالإمارة تزوِّدونى ! لقد صحبت رسول الله فَقَبَض الله رسوله وهو عنى راض ، ثم صحبت أبا بكر فسمعت وأطعت فتُوفى أبو بكر وأنا سامع مطيع ، وما أصبحت أخاف على نفسى إلا إمارتكم هذه » . وكان يتألم من جراحه فجعل جلساؤه يُنسونه ألمه بالثناء عليه ، فقال : « إن من غرَّه عمره لمغرُورٌ . والله لَوددتُ أنى أخرج منها كما دخلت فيها ، لا علىَّ ولا لى » . وروى عن ابن عباس أنه قال : أنا أول من أتى عمر بن الخطاب حين طعن فقلت له : أبشِرْ بالجنة ! صاحبت رسول الله فأطلت صحبته ، ووليت أمر المؤمنين فقوَّيت وأدَّيت الأمانة ، فقال : أمَّا تبشيرك إياى بالجنة فوالله الذى لا إله إلا هو لو أن لى الدنيا وما فيها لافتديت به من هول ما أمامى قبل أن أعلم الخبر . وأما ماذكرت من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذاك » . وقد كان يشتد خوفه كلما ازداد ثناء الناس عليه . روى أنه مد يده فأخذ تبنة كانت على الأرض إلى جنب فراشه فرفعها أمام عينيه وقال : ليتنى كنت هذه التبنة ! ليتنى لم أخلق ! ليت أمى لم تلدنى ! ليتنى لم أك شيئاً ! ليتنى كنت نسياً منسيًّا ! »

هذه حال تشهد بصدق الإيمان ، وتدلُّ على شعور هذا الرجل العظيم بجلال ما حمل من تبعة فى إمارة المؤمنين ، فهو لم يغترَّ بما تمَّ فى عهده من نصر وفتح ، ولم يُبطره ظفره بالفرس والروم ، ولم يزدهِه حديث الناس عنه وثناؤهم عليه ، بل خشى أن يكون قد ظَلَم يوماً ضعيفاً ، فارتفعت أنّات هذا الضعيف إلى السماء ، فوَزَنت عند ذى العرش حسنات عمر جميعاً !

وهذه الخشية هى التى جعلته ينظر إلى ابنته حفصة أم المؤمنين ، وقد دخلت عليه باكية تندبه بقولها : يا صاحب رسول الله ، ويا صهر رسول الله ، ويا أمير المؤمنين ! فيقول لها : إني أحرِّج عليك بمالى عليك من الحق أن تندبينى بعد مجلسك هذا ، فأماً عينك فلن أملكها . إنه ليس من ميت يُنْدَبُ بما ليس فيه إلا الملائكة تمقته . ونهى عمر أهله أن يبكوا عليه . وكان عمر فى النهى عن الندب وعن البكاء شديداً صارماً . سمع صُهَيْباً يقول ، وقد رأى اللبن يخرج من جراحه : واعُمَرَاه وا أخاه ، من لنا بعدك ! فقال له : مَهْ يا أخى ، أما شعرت أنه من يبْكَ عليه يُعَذَّبْ ؟ !

وخشى عمر أن يبالغ أهله بعد موته فى تكفينه ودفنه ، فأوصى ألا يغسلوه بمسك أو يقربوا منه مسكاً ، على ما كان يصنع العرب بذوى المكانة منهم ، وقال لابنه : « اقصدوا فى

كفنى فإنه إن يكن لى عند الله خير أبدلنى خيراً منه ، وإن كنتُ على غير ذلك سلبنى فأسرع سلبى ، واقصدوا فى حفرتى ، ولا تخرجن معى امرأة ، ولاتزكونى بما ليس فىَّ فإن الله هو أعلم بى . وإذا خرجتم بى فأسرعوا فى المشى ؛ فإنه إن يكن لى عند الله خير قدَّمتمونى إلى ما هوخير لى ، وإن كنت على غير ذلك كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شرًّا تحملونه » .

كان عبد الله بن عمر يسمع هذه الوصية وقد جلس إلى فراش أبيه ووضع رأسه على فخذه . فلما أحس عمر أنه موفٍ على لِقاء ربه . قال لابنه : ضع خدى بالأرض . فقال له عبد الله : هل فخذى والأرض إلاّ سواء ! قال عمر : ضع خدى بالأرض لا أمّ لك ! فلما وضع ابنه خده بالأرض شبك بين رجليه وجعل يقول : ويلى وويل أمى إن لم يغفر الله لى ؟ وظل يكررها حتى فاضت نفسه [1] .

فاضت نفسه وهو بين يدى ربه أكبرُ همه أن يترك الدنيا كفافاً لا عليه ولا له . وكان الناس إذ ذاك بالمسجد يحدِّث بعضهم بعضاً فى مقتله . وفيما يخشون أن يصيبهم ويصيب الدولة الناشئة من بعده . وكان لهم العذر أن تثور مخاوفهم فمن ذا يستطيع أن يضطلع من بعده بالعبء العظيم الذى خلّفه بمثل ما اضطلع هو به ! ومن ذا يستطيع أن ينسى نفسه وأهله ، وأن يتجرّد لله ولخدمة المسلمين والعدل بينهم تجرده ! لقد استفتح عهده وشبه الجزيرة وحدها فى سلطانه ، ومات والإمبراطورية الإسلامية تشتمل فارس والعراق والشام ومصر ؛ مع ذلك لم يغيِّر من تقشفه وبساطة عيشه ومن قسوته بنفسه ، ولم يغره السلطان بالخروج عن مألوف حياته ، وعما عرف الناس من تسويته بين نفسه وبين سائر المسلمين . لذلك اشتد حزن الناس لموته وجزعهم عليه . روى عن أبي طلحة أنه قال : ما من أهل بيت من العرب حاضرٍ ولا بادٍ إلا قد دخل عليهم بقتل عمر نقص فى دينهم وفى دنياهم . وروى عن الحسن أنه قال : « أىّ أهل بيت لم يجدوا فقد عمر فهم أهل بيت سوء » وقال حذيفة يوم قتل عمر : « اليوم ترك الناس حافة الإسلام ؛ وأيم الله لقد جار هؤلاء القوم عن القصد حتى لقد حال دونه وعورةُ ما يبصرون فهم

---

(١) بين الروايات عن اليوم الذى طعن فيه عمر واليوم الذى دفن فيه خلاف ، فإحداهاتجرى بأنه طعن يوم الأربعاء ودفن يوم الخميس لثلاث ليالى بقين من ذى الحجة . وتجرى أخرى بأنه طعن يوم الأربعاء ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرون . وتجرى رواية ثالثة بأنه توفى لأربع ليال بقين من ذى الحجة . وثم روايات أخرى أنه توفى فى الثامن أو العاشر من المحرم سنة أربع وعشرين .

لا يهتدون » ، وبكى سعيد بن زيد ذلك اليوم فقيل له : وما يبكيك ؟ قال : على الإسلام أبكى ! إن موت عمر ثلم الإسلام ثلمة لا تُرْتَقُ إلى يوم القيامة . ولا عجب ، وذلك شعور الحكماء وأولى الرأى ، أن يكون الضعفاء والبؤساء أقوى شعوراً بوقع الكارثة التى نزلت بهم ؛ فقد كان عمر لهم أباً وأخاً ، وكان لهم حصناً حصيناً وملجأً أميناً .

قد يدهشك ، والأمر ما ترى ، ألا يورد المؤرخون من رثاء أصحاب الرأى يومئذ لعمر مثل ما أوردوا من رثائهم لأبي بكر يوم قُبض . فكل ما ينسب إلى علىّ بن أبي طالب أنه دخل على عمر إثر وفاته ، فألفاه مُسَجًّى بثوب فى ناحية من غرفته ، فرفع الثوب عن وجهه وقال . « يرحمك الله أبا حفص ! ما أحدٌ أحبَّ إلىَّ بعد النبى صلى الله عليه وسلم أن ألقى الله بصحيفته منك » . والأكثر تواتراً أن علياً وقف على عمر بعد أن غُسِّل وكُفِّن وحمل على سريره فأثنى عليه وقال : والله ما على الأرض رجل أحبَّ إلىَّ من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجَّى بالثوب ! » . فلما صُلى على عمر جاء عبد الله بن سلام فقال : لئن كنتم سبقتموني بالصلاة عليه لا تسبقوني بالثناء عليه ، ثم وقف عند سريره وقال : نِعْم أخو الإسلام كنتَ ياعمر ، جواداً بالحق ، بخيلا بالباطل ، ترضى حين الرضا ، وتغضب حين الغضب ، عفيف الطرف ، طيب الظرف ، ولم تكن مدَّاحاً ولا مغتاباً . ثم جلس .

وإنما يذهب بعض الشيء من دهشتك أن تعلم أن أهل الرأى كانوا فى شغل بأمر الشورى فيمن يخلف عمر عن التفكير فى شيء سواه . وكان أصحاب الشورى الذين استخلفهم عمر أشدَّ من غيرهم اشتغالا بهذا الأمر ، وتوقاً لمعرفة مآله . لما حان دفن عمر ، فحُمل إلى المسجد ووضع بين قبر رسول الله ومنبره ليصلّى عليه ، أقبل عثمان بن عفّان وعلىٌّ بن أبي طالب ، وكل منهما يريد أن يتقدَّم صاحبه لهذه الصلاة . فلما رآهما عبد الرحمن بن عوف على هذه الحال قال : إن هذا لهو الحرص على الإمارة ، لقد علمتما ما هذا إليكما ، ولقد أمر به غيركما . تقدَّم ياصُهَيْب فصلِّ عليه . كذلك روى ابن سعد فى الطبقات . وفى رواية الطبرى أن عبد الرحمن بن عوف قال ! ما أحرصكما على الإمارة ؟ أمَا علمتما أن أمير المؤمنين قال : « ليصلِّ صهيب بالناس » ؟ فتقدَّم صهيب فصلى عليه وكبَّر أربعاً .

وفى رواية أوردها الطبرى عن المغيرة بن شعبة أنه قال : لما مات عمر رضى الله عنه بكته ابنة أبي حثمة فقالت : « واعمراه ؟ أقام الأَوَدَ ، وأبرأ العمَدَ ، وأمات الفِتَن ،

وأحيا السُّنَنَ . خرج نقيَّ الثوب ، بريئاً من العيب » فلما دفن عمر أتيتُ علياً أريد أن أسمع منه فى عمر شيئاً ، فخرج ينفض رأسه ولحيته وقد اغتسل وهو ملتحف بثوب لا يشكّ أن الأمر يصير إليه ، فقال : « يرحم الله ابن الخطاب ؟ لقد صدقت ابنة أبى حثمـة . لقد ذهب بخيرها ونجا من شرها . أم والله ما قالت ولكن قُوِّلت » .

ربما أذهب اشتغال أهل الشورى بالخلافة بعض الشيء من دهشتك لقلة لما أورده المؤرخون عما رُئى به عمر يوم وفاته . وسترى مبلغ هذا الاشتغال بعد حين فلا يبقى من دهشتك شئ ، ثم ترى إعظام الناس عمر وإكبارهم لحقه فتطيب نفسه بأن الحق باق أبداً ، وإن أخفته الأهواء حيناً .

غُسِل عمر وكُفِّن فى ثلاثة أثواب ، وحُمل إلى المسجد فصلى عليه صُهَيْبٌ ، ثم حمل القوم جثمانه فوقفوا به على باب عائشة ، وقال عبد الله بن عمر : يستأذن عمر ابن الخطاب أن يُدْفَنَ مع صاحبيه ؟ وأجابت عائشة : ادخل بسلام .

ودخل القوم إلى حجرة رسول الله ، فأنزلوا الجثمان إلى مثواه الأخير . وكان رأس أبي بكر قد جُعل عند كتفى النبى ، فوُضع رأس عمر عند كتفى أبي بكر . وتولى عبد الله بن عمر تسوية الجثمان فى مكانه ، وكان قد نزل معه أصحاب الشورى الخمسة : عثمان بن عفّان ، وعلىّ بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقّاص ، والزُّبَير بن العوام [1] . أما طلحة بن عبيد الله فكان لا يزال غائباً عن المدينة ، فلم يحضر وفاة عمر ولم يحضر دفنه .

وسوَّى القوم التراب على الجثمان وأقفلوا القبر . والناس على مقربة منهم مجتمعون فى المسجد وقد هوى الحزن بأفئدتهم إلى أعمق قرار ، وذهب الأسى بألبابهم لموت رجل عزّ فى الرجال نظيره ، وأمير للمؤمنين تولى أمرهم وهم من شدّته وغلظته فى خوف ووجل ، ثم قضى بينهم عشر سنوات وستة أشهر كان خلالها أبرّ أمير وأعْدَله وأتقاه ، وكانوا لذلك يزدادون كل يوم له حبًّا .

وكيف لا يفعلون وقد كانوا أول عهده فى عَيْلة فأغناهم الله من فضله ، وكان الخوف من الفرس والروم يساورهم فأصبحوا بفضل الله سادة الفرس والروم ! بذلك استقر سلطان الإسلام وتوطّد عرشه ، فحق لعمر أن يدفن مع صاحبيه ، لينعم بجوارهما ، وتطمئن روحه

---

(١) هذه رواية الطبرى وابن الأثير ، أما ابن سعد فيروى عن أبي الحويرث عن جابر أنه قال : « نزل فى قبر عمر عثمان بن عفان ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وصهيب بن سنان ، وعبد الله بن عمر » .

إلى أنه سار على سُنَّتهما ، وأنه أتمّ على الأرض ما قضى الله أن يتمّ حين أوحى إلى نبيه رسالة السماء .

وقد أتم عمر هذه الرسالة ؛ لأنه نسى نفسه ، وجعل وحدة المسلمين وعظمة الإسلام غرضه ، فلم يفكر حين خلافته فى مال أو جاه يكون لذويه وأهله ، بل رأى ما وليه من أمر المسلمين عبئاً ألقاه القدر على كاهله ، فكان كل همه ألا تَعْلَـقَ به فيما ولى من ذلك ريبة من الناس ولا من نفسه ، وأن يؤدّى فى ولايته لكل ذى حق حقه . وقد فعل ، فأعزّ الله الإسلام ، وأورث الأرض عبادَه الصالحين .

تفرق الناس بعد أن فُرِغ من دفن عمر ، وساروا تعلوهم الكآبة ويساورهم الحزن ، وجعل كثيرون يذكرون يوم طُعن ، ويسأل بعضهم بعضاً عن باعث أبي لؤلؤة إلى ارتكاب فعلته الشنعاء . فلو أن الخراج لم يكن يَنْهظُه ، بالقياس إلى كسبِ عمله ، لما أقدم على جريمةٍ عاقبتها القضاء على حياته ، ولكن ، أو يكفى أن يقول له عمر إن ما فرض عليه من خراج ليس بالكثير ليدفعه ذلك إلى قتله ؟ ! إن صح هذا كان عجباً ؛ فقد كان فى مقدوره أن يعود فيعرض جلية أمره على الخليفة ، ليخفف العبء عنه ، أم أن فى الأمر سرًّا كان أقوى أثراً فى نفسه ، وكانت الشكوى من الخراج خُدْعةً أريد بها ستر الحقيقة عن الأعين ؟ !

الحقيقة أن الفرس واليهود والنصارى قد كانت فى نفوسهم حفيظة أى حفيظة على العرب عامة وعلى عمر خاصة ، بعد أن غلب المسلمون الفرس والنصارى على أمرهم ، وتولوا حكم بلادهم ، واضطروا عاهل الفرس إلى فرار انتهى به إلى شرّ مصير . وذكر الناس فى أحاديثهم هذه الحفيظة ، وذكروا قول عمر حين عرف أن الذى طعنه هو أبو لؤلؤة الفارسى : « قد كنت نهيتكم عن أن تجلبوا علينا من علوجهم أحداً فعصيتموني ! » . وبالمدينة من هؤلاء العلوج جماعة أن يكونوا قليلين فهذه الحفيظة تجمع قلوبهم وتوغر صدورهم . ومن يدرى ! لعلهم ائتمروا فكانت فعلة فيروز ثمرة مؤامرة أرادوا بها شفاء ما فى نفوسهم من غِلٍّ ؛ وحسبوا أنهم قادرون بها على أن يشتتوا شمل العرب ويفتُّوا فى أعضاد المسلمين .

وكان أبناء عمر أشد حرصاً على معرفة الحقيقة ؛ وقد كانوا يستطيعون كشفها والوقوف على جلية أمرها لو أن فيروز لم ينتحر . لكنه انتحر ، فذهب بسرّه إلى القبر معه . أفقضى الأمر ، ولم يبق إلى معرفة السر سبيل ؟

كلا ! بل أرادت الأقدار أن يقف على السر من قادة العرب من يدل عليه . رأى عبد الرحمن بن عوف السكين التى قُتل بها عمر فقال : رأيت هذه أمس مع الهرمزان وجُفَيْنة فقلت : ما تصنعان بهذه السكّين ؟ فقالا : نقطع بها اللحم ، فإنا لا نمس اللحم ، وقال عبد الرحمن بن أبى بكر : قد مررت على أبى لؤلؤ قاتل عمر ومعه جُفَينَة والهرمزان وهم نَجِيٌّ ، فلما بَغَتهم ثاروا ، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونِصَابٌ فى وسطه ، فانظروا ما الخنجر الذى قتل به عمر ، فوجدوه الخنجر الذى نعت عبد الرحمن ابن أبي بكر . لم يبق إذاً فى الأمر ريبة ، هذان شاهدا عدل ، بل هما من أعدل شهود المسلمين ، يشهدان بأن الهرمزان وجفينة كان معهما السكين الذى قتل به عمر ، ويشهد أحدهما أنه رأى أبا لؤلؤة القاتل يأتمر قبل القتل معهما ، ويقرران أن ذلك كله كان عشية طُعن عمر . أفيستطيع أحد بعد ذلك أن يشك فى أن أمير المؤمنين ذهب ضحية مؤامرة كان هؤلاء الثلاثة أبطالها ، ولعل غيرهم من أبناء فارس أو من الأمم التى غلبها المسلمون كان معهم فيها ؟

سمع عبيد الله بن عمر قول عبد الرحمن بن عوف وشهادة عبد الرحمن بن أبي بكر فاصطبغ الوجود كله دماً أمام عينيه ، ودخل فى روعه أن كل أجنبى بالمدينة شريك فى المؤامرة ، وأن أيديهم جميعاً تقطر من دم الجريمة . لذلك لم يتردد أن تقلد سيفه ، ثم بدأ بالهرمزان وجفينة فقتلهما . روى أنه دعا الهرمزان ، فلما خرج إليه قال له : انطلق معى حتى ننظر إلى فرس لى وتأخر عنه ، . حتى إذ مضى بين يديه علاه بالسيف . فلما وجد الفارسى حرَّه قال : لا إله إلا الله ! وخرّ صريعاً . وروى أن عبيد الله بن عمر قال : «ودعوت جفينة ، وكان نصرانياً من نصارى الحيرة ، وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص أقدمه المدينة للملح الذى كان بينه وبينه ، وكان يُعَلِّم الكتاب بالمدينة فلما علوته بالسيف صَلَب بين عينيه » .

لم يكتف عبيد الله بقتل الهرمزان وجفينة ، بل انطلق فقتل ابنة لأبي لؤلؤة صغيرة تدَّعى الإسلام ، وأراد ألا يترك سبياً بالمدينة إلا قتله . وسمع الناس فى المدينة بما يصنع فأسرعوا إليه ، واجتمع المهاجرون الأوّلون عليه فنهوه وتوعّدوه ؛ لكنه كان فى حال من الهياج حتى لقد قال : والله لأقتلنهم وغيرهم ! وعرَّض ببعض المهاجرين . وعرض له عمرو بن العاص وجعل يحدّثه بالشدة تارة وباللين أخرى . ولم يزل به حتى دفع إليه بالسيف . وأقبل سعد بن أبي وقاص ، وقد عرف مقتل جُفَينة ، فأخذ بناصية عبيد الله وأخذ عبيد الله بناصيته ، واشتد بينهما الأمر لولا أن حجز بينهما الناس . ثم أقبل عثمان بن عفّان ،

ولما يكن قد بويع ، فأمسك بتلابيب عبيد الله وأمسك عبيد الله بتلابيبه ، وتناصيا وأظلمت الأرض من حولهما ، ثم تدخل الناس فحجزوا بينهما وعثمان يقول : قاتلك الله ! قتلت رجلا يصلى وصبية صغيرة وآخر من ذمة رسول الله ! ما فى الحق تَرَكُك ! لكن عبيد الله لم يكن يرى أمامه غير الدم المراق ، دم أبيه الكريم ، فكان كهيئة السبع يعترض العجم بالسيف حتى حُبس [1] .

ولم يكن إخوة عبيد الله دونه ثورةً لمقتل أبيهم . وكانت حفصة أم المؤمنين من أشدهم ثورة . رُوى عن عبد الله بن عمر أنه قال : « يرحم الله حفصة ! فإنها ممن شجّع عبيد الله على قتلهم » .

وفعلة عبيد الله من حميّة الجاهلية لا ريب ؛ فما كان لرجل أن يثأر لنفسه ، أو يأخذ حقه بيده بعد أن أصبح القضاء لرسول الله وخلفائه من بعده ؛ يحكمون بين الناس بالعدل ، ويتولون القِصَاص ممن أجرم . لذلك كان حقاً على عبيد الله إذ عرف المؤامرة التى أودت بحياة أبيه ، أن يحتكم إلى أمير المؤمنين ؛ فإن ثبتت المؤامرة عنده أجرى فيها حكم القِصَاص وإن لم تثبت أو قامت الشبهة فى نفسه منها درأ الحَدّ بالشبهة ، أو قضى بأن أبا لؤلؤة هو الآثم .

أياً ما يكن الحكم فقد آن للشورى أن يجتمعوا ، وأن يختاروا أحدهم أميراً للمؤمنين . وقصة الشورى حدثت بعد وفاة عمر ، فلم تكن من ثم تدخل فى نطاق هذا الكتاب ، لولا أن عبيد الله بن عمر بقى محبوساً إلى تمامها ، وإلى أن استُخْلِف عثمان بن عفّان ، ثم كان لأمير المؤمنين معه شأن يجب لمن يؤرخ لعمر ألا يُغفله .

ثم إن قصة الشورى تصوّر الحال النفسية للمسلمين حين وفاة عمر تصويراً يشهد بأن هذا العهد ، وما تم فيه من اتساع رقعة الفتح وانفساح مدى السلطان ، قد انطوى إلى جانب عظمته وجلاله على بذرة ثورة بقيت مستكنة فى خلافة عمر ومعظم خلافة عثمان ؛ وهذه البذرة هى التى أدّت من بعدُ إلى مقتل عثمان . وإلى الحرب الداخلية بين علىٍّ ومعاوية ، وإلى ما تلا ذلك من نزاع بين الأمويين والعباسيين . وقد كان لذلك كله أثر واضح فى عظمة الإمبراطورية الإسلامية ، كما كان له أثر واضح فى انحلالها بعد

---

(١) يذكر ابن كثير فى (البداية والنهاية) قتل عبيد الله الهرمزان وجفينة ويقول : « وقد كان عمر قد أمر بحبسه ليحكم فيه الخليفة من بعده » . ومؤدى هذا القول أن عبيد الله قتل من قتل وعمر حى فأمر بحبسه . وأكثر الروايات وأرجحها عندى أن عبيد الله فعل ماقعل بعد وفاة عمر وقبل بيعة عثمان .

بضعة قرون . فحق علينا ، ونحن نؤرخ لعمر ، أن نُبرز هذه الحال النفسية التى ظهرت إثر وفاة عمر على نحوٍ لم تظهر به فى حياته .

وفى رواية المؤرخين قصة الشورى بعض الاختلاف . ويرجع اختلافها إلى ما يبديه بعض المؤرخين من إيثار لعلىّ ولبنى هاشم وحقهم فى إمارة المؤمنين ، وما يبديه بعضهم الآخر من الحرص على رواية الوقائع كما بلغتهم دون التأثر بميل خاص . على أن هذه الروايات فى جملتها وتفصيلها تشهد بأن بنى هاشم وجدوا فرصة الشورى سانحة لاسترداد حقهم فى إمارة المؤمنين ، لأنهم ورثة النبى عليه الصلاة والسلام ؛ وبأن الكثرة من قريش كانوا يترددون فى إجابة بنى هاشم إلى هذا الطلب ، بل كانوا يؤثرون ألا تجتمع النبوة والخلافة فى بيت واحد .

رُوِى أن عمر لما استخلف الشورى قال العباس بن عبد المطلب لعلىٍّ : لا تدخل معهم ! قال علىٌّ : إنى أكره الخلاف ؛ وكان جواب العباس : إذن ترى ما تكره . وقد كان عمر قال للشورى : « إن رضى ثلاثةٌ رجلاً وثلاثة رجلا فحكّموا عبد الله بن عمر ، فإن لم يرضوا حكم عبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف » . فلما خرجوا من عند عمر قال علىٌّ لقوم من بنى هاشم : إن أُطيع فيكم قومكم لم تُؤمَّروا أبداً . وقال معه العباس : عُدِلتْ عنّا ، وذكر له قول عمر : « كونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف » ؛ ثم قال : فسعدٌ لا يخالف ابن عمه ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان فيولّيها أحدهما الآخر . فإن كان الآخران معى لم ينفعا » . فقال له العباس : « لم أدفعك فى شىء إلا رجعت إلىَّ مستأخراً بما أكره : أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت . وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت : فأشرت عليك حين سمّاك عمر فى الشورى ألا تدخل معهم فأبيت . احفظ على واحدة : كلّما عرض عليك القوم فقل : لا ، إلا أن يولّوك . واحذر هؤلاء الرهط فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا . وأيم الله لا نناله إلاّ بشر لا ينفع معه خير ! » .

لا أرب لى فى ترجيح هذه الرواية ولا فى تفنيدها ، وهى تشهد على كل حال أن بنى هاشم كانوا يرون أنفسهم أحق بخلافة النبى وتولّى أمرَ المسلمين ، وأنهم كانوا يرشحون علىَّ بن أبي طالب لأنه كان من أول المسلمين ، إذ أسلم ولما يبلغ الحلم ، ولأنه صهر رسول الله وابن عمه ولكن علياً لم يكن يحرص على الخلافة إثر وفاة الرسول حرص

من يقيم الثورة إذا لم يبلغ أربه . فلما استُخلف أبو بكر عمر لم يَثُر عليٌّ ولم يَثُر أحد من بنى هاشم . ولما طُعن عمر وجعل الشورى فى ستة بينهم عليٌّ تحرك بنو هاشم من جديد لتحقيق غرضهم ، لكن علياً بقى مع ذلك أشد حرصاً على وحدة المسلمين منه على الاستئثار بالأمر لنفسه ، مع اقتناعه بأنه أحق المسلمين بهذا الأمر .

وذلك ما تشهد به قصة الشورى فى وضوح وجلاء ؛ فقد اجتمع أهل الشورى بعد الفراغ من دفن عمر . قيل اجتمعوا فى بيت المِسْوَر بن مَخرَمة ، وقيل فى بيت المال ، وقيل فى حجرة عائشة بإذنها ، وقيل فى بيت أحدهم . واجتمع معهم عبد الله بن عمر يشير عليهم وليس له من الأمر شىء . وأمروا أبا طلحة الأنصارى أن يحجبهم ، ولم يرضوا أن يجلس عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة بالباب ، بل حصبهما سعد بن أبى وقاص وأقامهما ، وقال لهما : تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى أهل الشورى !

وبدأ القوم يتشاورون ، فاشتد بينهم الجدل وارتفعت منهم الأصوات ارتفاعاً دلَّ أبا طلحة الأنصارى على شدة اختلافهم ، فدخل عليهم وقال لهم : « أنا كنت لأن تَدَافَعُوها أخوف منى لأن تنافَسُوها. والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى أمرتم ، ثم أجلس فى بيتى فأنظر ما تصنعون ! »

تجرى رواية بأن هذا الخلاف ظل متصل الحدّة يومين كاملين ، تداركه عبد الرحمن ابن عوف بعدهما باقتراح سكّن من حدته ، وانتهى إلى الغاية المنشودة . وتجرى رواية أخرى بأن عبد الرحمن تدارك الخلاف منذ اليوم الأول ، وأنه استطاع بحكمته أن يتغلّب عليه . وأيما الروايتين صحت فقد قال عبد الرحمن للمجتمعين : أيكم يُخرج منها نفسه ويتقلّدها على أن يوليها أفضلكم ؟ ونظر إليه القوم فى دهش ولم يُحر أحد منهم جواباً . وكيف يجيبونه والإمارة متنازعة بين بنى هاشم وغيرهم من قريش ! قال عبد الرحمن : فأنا أخلع منها . قال عثمان : فأنا أول من رضى . وقال سعد والزبير : رضينا . أما علىّ ابن أبى طالب فبقى ساكتاً . فسأله عبد الرحمن : ما تقول يا أبا الحسن ، وأجابه علىّ : أعطنى موثقاً ، لتؤثرن الحق ، ولا تتّبع الهوى ، ولا تخصّ ذا رحم ، ولا تألو الأمةَ نصحاً . ذلك أن عبد الرحمن كان صهراً لعثمان بن عفّان وابن عمٍّ لسعد بن أبى وقاص ؛ ولهذا خشى علىٌّ أن يؤثر عليه عثمان . لكن عبد الرحمن لم يلبث حين سمع كلام علىّ أن قال : أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على مَن بَدَّلَ وغَيَّر وأن ترضوا من اخترت لكم ، وعَلَىَّ ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين نصحاً ؛ وبذلك أخذ منهم

ميثاقاً وأعطاهم مثله .

خلع عبد الرحمن نفسه من ترشيح عمر له ، وجعل كل همه إلى توحيد كلمة المسلمين على من يختاره لإمارتهم . لهذا بدأ يعمل لتضيق دائرة المرشحين . وإذ كان يعلم أن علياً وعثمان هما المتنافسان اللذان يخشى اختلافهما فقد بدأ يسعى ليحصر الترشيح فيهما . وأول ما صنع من ذلك أن خـلا بعلي وقال له : تقول إنك أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك فى الدين ، ولم تبعد . ولكن ، أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضره ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به ؟ وأجابه علي : عثمان . ثم إنه خلا بعثمان وقال له : تقول شيخ من بنى عبد مناف ، وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه ، ولى سابقة وفضل ، فأين يُصرَفُ هذا الأمر عنى ! ولكن لو لم تحضر ، أىّ هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ وأجابه عثمان : على . وكان قد تحدَّث إلى الشورى جميعاً قبل ذلك وطلب إليهم أن يفوّض ثلاثة منهم ما لهم من الحق فى ولاية الأمر إلى ثلاثة . وإذ كان سعد والزبير يعلمان أن مالهما من أمل فى ولاية الأمر ضعيف ، فقد فوّض الزبير ما يستحقه من الإمارة إلى علىّ وفوّض سعد ماله فيها من حق إلى عبد الرحمن ، وتُرك حق طلحة لعثمان . أما وقد خلع عبد الرحمن نفسه فقد انحصر الترشيح فى علىٍّ وعثمان ، وقد أصبح الأمر فى اختيار أحدهما معلّقاً فى عنق عبد الرحمن .

قدَّر ابن عوف جلال التَّبعة الملقاة على عاتقه ، وما يجب عليه لله ولدين الله وللمسلمين أن يبلغ بها غايةً تجتمع عليها الكلمة وينْحسم بها كل خلاف . لذلك جعل يلقى أصحابَ رسول الله ومن وافى المدينة بعد الحج ، من أمراء الأجناد ورءوس الناس ، يسألهم جميعاً مَثْنَى وفُرادَى ، مجتمعين ومتفرقين سراً وعلانية ، حتى يجتهد فى أفضل الرجلين فيوليه . ورأى الكثرة الواضحة أشد ميلا لعثمان . مع ذلك لم يُرد أن يعلن للناس رأياً يتهمه أنصار علىّ فيه ، بل ذهب إلى دار ابن أخته المِسْوَر بن مَخْرَمة فأيقظه ، وقد مضى أكثر الليل من تلك الليلة الأخيرة التى فرضها عمر لاختيار أمير المؤمنين ، وطلب إليه أن يدعو له علياً وعثمان . فلما أقبلا قال لهما : إني قد سألت الناس فلم أجدهم يعدلون بكما أحداً . ثم أخذ العهد على كلٍّ منهما : لئن ولاه ليعدلنّ ، ولئن ولّى عليه ليسمعنّ وليطيعنّ .

وخرج بهما إلى المسجد فى الصبح بعد أن نودى فى الناس أن الصلاة جامعة . وغصّ المسجد بالناس : فصعد عبد الرحمن المنبر فدعا دعاء طويلا ثم قال : أيها الناس ، إن الناس قد أحبّوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا مَنْ أميرُهم . فقال

سعيد بن زيد : إنا نراك لها أهلا . قال عبد الرحمن : أشيروا علىّ بغير هذا . وأشار عمّار بن ياسر والمقداد بن عمرو بعلىّ ، وأشار عبد الله بن أبي سرح وعبد الله ابن أبي ربيعة بعثمان . وأدّى اختلاف الفريقين إلى تشاتم بين عمار وابن أبي سرح ؛ فصاح سعد بن أبي وقّاص : يا عبد الرحمن ! أفرغ قبل أن يُفْتَتَن الناس . قال عبد الرحمن : إني قد نظرت وشاورت ، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا .

ثم إنه دعا علياً فأخذ بيده وقال له : هل أنت مبايعى لَتَعْمَلَنّ بكتاب الله وسُنّة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال علىٌّ : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى . فأرسل يده ، ودعا عثمان وأخذ بيده وقال له : هل أنت مبايعى لتعملنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال عثمان : اللهم نعم . فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان وقال ثلاثاً : اللهم اسمع واشهد ؟ ثم قال : إني قد خلعت ما فى رقبتى من ذلك ، وجعلته فى رقبة عثمان ! وبايعه . فازدحم من بالمسجد يبايعون عثمان .

أىّ موقف وقفه علىٌّ من اختيار عثمان بن عفان وبيعته ؟ ذلك أمر اختلفت الروايات فيه . روى ابن سعد بإسناد أن أوّل من بايع عثمان عبد الرحمن بن عوف ، ثم علىّ ابن أبي طالب . وروى بإسناد آخر أن علياً بايع عثمان أول الناس ، ثم تتابع الناس فبايعوه . وروى ابن كثير أن عبد الرحمن بن عوف قعد على المنبر مقعد النبي ، وأجلس عثمان بعد أن بايعه على الدرجة الثانية . « وجاء إليه الناس يبايعونه ، وبايعه علىّ ابن أبي طالب أولا ، ويقال آخراً » . أما الطبرى فيسوق روايتين تقرب إحداهما من هذه الروايات ، وتختلف الثانية عنها كل الاختلاف ، وتدلان كلتاهما على أن اختيار عثمان ترك فى نفس علىٍّ أثراً عميقاً . أما الأولى فتذهب إلى أنه لما أقبل الناس يبايعون عثمان ، بعد أن بايعه عبد الرحمن ، تلكأ علىٌّ فقال عبد الرحمن : (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسه ، وَمَنْ أَوْفى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتيه أَجْراً عَظِيمًا) . فرجع علىٌّ يشق الناس حتى بايع وهو يقول : خدعة وأيما خدعة [1] . وأما الرواية الثانية فتذهب إلى أنه لما بايع

---

(١) يفسر الطبرى قول على « خدعة » بأن عمرو بن العاص لقى عليا فى ليالى الشورى فقال له : إن عبدالرحمن رجل مجتهد وأنه متى أعطيته العزيمة كان أزهد له فيك ، ولكن الجهد والطاقة فإنه أرغب له منك ، ثم لقى عثمان فقال له إن عبد الرحمن رجل مجتهد وليس واقه يبايعك إلا بالعزيمة فاقبل لذلك قال على خدعة . وهذه رواية ضعيفة نسجت بعد الذى كان بين على وعمرو بن العاص حين الخلاف مع معاوية . فإنما اختار عبد الرحمن عثمان بعد أن استشار الناس من أهل المدينة وغيرهم .

عبد الرحمن عثمان قال له علىّ : « حبوته حَبْوَ دَهْر . ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصفون ! والله ما وليّتَ عثمان إلا ليردّ الأمر إليك ! والله كل يوم هو فى شأن » فقال عبد الرحمن : « يا علىّ لا تجعل على نفسك سبيلا ، فإنى قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان » . فخرج علىّ وهو يقول : يقول : سيبلغ الكتاب أجَله » .

ينفى ابن كثير روايتى الطبرى هاتين فيقول : « وما يذكره كثير من المؤرخين كابن جرير وغيره من رجال لا يُعْرفون ، أن علياً قال لعبد الرحمن : خدعتنى ، وأنك إنما وليته لأنه صهرك وليشاورك كل يوم فى شأنه ، وأنه تلكأ حتى قال له عبد الرحمن : فمن نكث فإنما ينكث على نفسه إلى آخر الآية ، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت فى الصحاح فهى مردودة على قائليها وفاعليها والله أعلم » .

أنت ترى ما بين هذه الروايات من اختلاف . لكنها جميعاً تشهد بأن قريشاً كانت تؤثر ألا تجتمع النبوة والخلافة فى بنى هاشم . وقد نسب إلى علىّ أنه قال بعد بيعة عثمان : « إن الناس تنظر إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : إن ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً ، وما كانت فى غيرهم من قريش تداولتموها بينكم » . وهذا القول ، صحت نسبته إلى علىّ أو لم تصح ، يتفق وما حدث لذلك العهد . فقد كان علىٌّ من أعلم الناس وأقضاهم بالحق والعدل ؛ فالعدول مع ذلك عنه يفسر هذا الحرص من قريش على أن تكون إمارة المؤمنين مداولة بينهم ، لا يتوارثها أهل بيت توارث الملوك عروش آبائهم . وربما تمّت البيعة لعلىٍّ لولا هذا الشعور وتأصُّله فى قريش .

جلس عثمان بعد البيعة فى جانب المسجد ، ثم دعا عبيد الله بن عمر من محبسه ، ليحاكمه فى قتله الهرمزان وجُفَينة وابنة أبي لؤلؤة بعد الذى اعتقده من ائتمارهم بحياة أبيه . فلما مثل عبيد الله بين يدى عثمان وجَّه أمير المؤمنين القول لجماعة من المهاجرين والأنصار يسألهم : أشيروا علىَّ فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق ؟ قال علىٌّ بن أبى طالب ما من العدل تركه ، وأرى أن تقتله . ورأى بعض المهاجرين فى هذا الرأى من القسوة مالا تطيقه النفس فقالوا : قُتِل عمر أمس ويُقْتَلُ ابنه اليوم ! ووجم الحاضرون لهذا الاعتراض ، وأمسك علىّ عن القول ، وأجال عثمان فى الحاضرين بصره يلتمس الرأى . فلو أنه استجاب لرأى على وقتل عبيد الله لنكأ من آل عمر جراحات لما تندمل ، ولأثار بذلك ثائرات لا يعلم إلا الله عُقبَاها ، ولكان مثلا فى القسوة لا يقاس به أشد الناس غلظة

وبطشاً . وفى طبع عثمان لين يتجافى به عن مثل هذا البطش لذلك ودّ لو يجد له أحد الحاضرين مخرجاً من موقف ما أحرصه على الخروج منه . وكان عمرو بن العاص حاضراً هذا المجلس . فقال : « إن الله أعفاك من هذا الحدث ، وقد كان وليس لك على المسلمين سلطان . تلك قضية لم تكن فى أيامك ، فدعها عنك » ورأى عثمان فى قول ابن العاص سفسطة فلم يقتنع برأيه ، وإنما وجد فيه ما يسوغ الدية ، لذلك قال : أنا وَليهم – يريد ولى الذين قتلوا – وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى .

والحق أن الفتوى بقتل عبيد الله كانت قاسية ، وكانت الشبهة فى عدها قائمة ، فهب عبيد الله أخطأ فى اعتقاده أن الهرمزان وجفينة ائتمرا مع أبى لؤلؤة بأبيه ، لقد كان له مع ذلك من العذر ما ينهض شبهة تدرأ عنه الحد وتخفف العقاب . ولعل عثمان لو أجرى التحقيق الدقيق لانكشفت المؤامرة أمامه ، ولثبتت ثبوتاً تنتفى معه كل ريبة فيها . فشهادة عبد الرحمن بن أبى بكر وشهادة عبد الرحمن بن عوف كافيتان لتدفعا عبيد الله إلى ما فعل ، إن لم تنهضا دليلا على الهرمزان وجفينة . وأيّد هاتين الشهادتين أن النصل الذى قتل به عمر كان فى أيدى المؤمرين وهم نجىّ .

ولعل عثمان رأى ألا يقوم فى هذا الأمر بتحقيق قد يثير ثائر الفرس ، ويزيد الحفائظ بينهم وبين العرب ؛ ولهذا ودى القتلى من ماله ، وأمر فى الوقت نفسه زياد بن لبيد البياضى أن يكف عن التعريض بعبيد الله بن عمر . وبذلك نامت فتنة لم يكن من الخير أن تستيقظ ، وانصرف المسلمون فى أرجاء الإمبراطورية إلى مألوف حياتهم قبل وفاة عمر .

* * *

بانتحار أبى لؤلؤة ، وقتل الهرمزان وجفينة ، ودية عثمان إياهما من ماله ومنعه الخوض فيما كان من عبيد الله ، أسدل على السر فى مقتل عمر ستار لا يزال إلى اليوم مسدلا ، ولا يزال المؤرخون يتحاشون إزاحته . ولعمر الحق ما أرى لذلك سبباً ، وشهادة عبد الرحمن ابن عوف وعبد الرحمن بن أبى بكر تسوّغ ما اعتقده عبيد الله بن عمر ، واعتقدته أخته حفصة أم المؤمنين ، من ائتمار هؤلاء الأعاجم بأبيهما ؟ وقد كان لفيروز وللهرمزان من العذر عن هذه المؤامرة أن المسلمين فتحوا بلادهم ، واضطروا ملكهم للفرار لينتهى إلى أشنع مصير وأرذله فإذا تحركت نفوسهم لما أصاب وطنهم فدبّروا وائتمروا ، فذهب عمر ضحية مؤامرتهم لم يكن ذلك عجباً . وإنما العجب أن يظل الناس يعتقدون أن فيروز قتل عمر

لأنه لم يُنصفه بتخفيف الخراج عنه ، مع أن عوده للشكوى من ثقل الخراج لم يكن أيسر منه .

وإذ كانت اعتبارات الوقت قد ألقت على عثمان أن يسدل على المؤامرة حجاباً فليس للمؤرخين مثل عذره . فقد أسلم الفرس فاعتزوا بالإسلام وأعزوه ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الأمم التى دانت به ، فحق على كل مؤرخ أن يبدى رأيه فى أمر أصبح ملك التاريخ فأصبح واجباً جلاؤه . لهذا أبديت رأيى فيه ، موقناً أن هذا الرأى يفسر الكثير مما حدث ، من بعد ، بين العرب والفرس (١) .

والأمر أجدر بالمصارحة لأنه يتعلق بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ هذا الرجل الذى ظل اسمه ، وسيظل أبد الدهر ، علماً فى التاريخ على العدل والنزاهة والحزم وحسن الرأى وصدق الإرادة ، والتجرد لله ولدين الله مجرداً أعز الله به الإسلام ومدَّ لواءه فى الخافقين . كان عبد الله بن مسعود إذا ذكر مقتل عمر بكى وقال : « إن عمر كان حصناً حصيناً للإسلام ، يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه . فلما مات عمر انثلم الحصن فالناس يخرجون من الإسلام » . وعن حذيفة أنه قال : « إنما كان مثل الإسلام أيام عمر مثل امرئ مقبل لم يزل فى إقبال ، فلما قتل أدبر فلم يزل فى إدبار » وروى أن أبا عبيدة ابن الجراح قال ، وهو لا يزال فى عنفوان نشاطه وقوته : « إذا مات عمر رقَّ الإسلام . ما أحب أن لى ما تطلع عليه الشمس أو تغرب وأن أبقى بعده . وسترون ما أقول إذا بقيتم فإن وَلِىَ وال بعد عمر فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يَطعْ له الناس ولم يحتملوه ، وإن ضعف عنهم قتلوه » .

وإنما قال ابن مسعود وحذيفة وأبو عبيدة ما قالوا لاجتماع ما اجتمع من الصفات فى عمر . واجتماع هذه الصفات هو الذى جعل المسلمين يحتملون منه مالا يحتملونه من غيره ، وهو الذى أحزنهم أشد الحزن لوفاته حتى كأنهم لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ . وكيف لا يحزنون وقد كانوا ، أول ما استخلف ، فقراء فأغناهم الله ، وكانوا يخشون الفرس والروم ، فأصبحوا سادة الفرس والروم ، وكانوا فى زاوية من الأرض لا يكاد يذكرها العالم ، فأصبحوا بفضل الله ملء السمع والبصر من حياة العالم . كل ذلك وعمر هو هو ، لم يتغير مظهره

---

(١) يرى الأستاذ عباس محمود العقاد هذا الرأى فى كتابه عبقرية عمر فيقول : فعمر إنما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الإسلامية لاشك فيها . وما كانت قصة الخراج إلا الستار الذى يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى مخافة القصاص الذى يحيق بهم إذا جهروا بما دبروه أو جهروا بالعلة التى من أجلها تربصوا بذلك التدبير وفى رأى الأستاذ العقاد أن كعب الأحبار كان شريكاً فى المؤامرة . وأنا مقتنع أنه كان على علم بها ، لكنى لا أستطيع القطع باشتراكه فيها .

ولم تتغير حياته ، فلم يفكر فى نفسه ولا فى أهله ، بل رأى فيما وليه من أمر المسلمين عبئاً ألقاه القدر على عاتقه ، فكان كل همه ألا تَعْلَقَ بولايته ريبة من الناس ولا من نفسه ، وأن يؤدى لكل ذى حق حقه . بذلك أعز الله الإسلام ، وأورث الأرض عبـــاده الصالحين .

رحم الله عمر ، ورضى عنه ! إنه كان من عباده المؤمنين .

خـــاتمـة

مهد أبو بكر لقيام الإمبراطورية الإسلامية ، فامتدت فى عهد عمر من حدود الصين شرقاً إلى ما وراء برقة غرباً ، ومن بحر قزوين فى الشمال إلى النوبة فى الجنوب ، واشتملت فارس والعراق والشام ومصر ، وضمتها كلها إلى بلاد العرب ، فكان لتفاعل العوامل التى اختصت بها كل واحدة من هذه الأمم ، أثر بالغ فى توجيه حضارة العالم من بعد ، وكان تفاعل هذه العوامل طبيعياً ؛ فلم يكن لأمير المؤمنين ولا لغيره من السلطان ما يمحو أثره ، أو يغير النتائج التى ترتبت عليه .

وقد كانت هذه الأمم ، حين انضمت إلى لواء الإمبراطورية الإسلامية ، متباينة أشد التباين فى كل مقوماتها ، إذ كانت كل واحدة منها تختلف عن سائرها فى اللغة ، والجنس ، والعقيدة ، والحضارة ، والبيئة الاجتماعية ، والبيئة الاقتصادية . صحيح أن قبائل من العرب كانت تقيم ببادية السماوة ، على تخوم العراق والشام ؛ وأن هذه القبائل أقامت ملك الحيرة ، وملك بنى غسان . لكن أهل الشام الأصليين وأهل العراق الأصليين كانوا من جنس غير عربى ، وكانوا يتكلمون لغة غير العربية . أما فارس ومصر فكانتا لا تمتّان للعرب فى الجنس ولا فى اللغة بصلة . كانت عقائد الفرس تخالف عقائد أهل الشام وأهل مصر ، وكان أهل العراق مقسمين بين نصرانية الروم ومجوسية الفرس ، وكانت الحياة ولون الحضارة فى كل واحدة من هذه الأمم يختلفان عنهما فى الأمم الأخرى اختلافاً كبيراً . وقد تم اجتماع هذه الأمم كلها ، وبينها هذا التفاوت والتباين ، فى وحدة الإمبراطورية فى زمن لم يزد عن عشر سنين . لكن القوة التى تستطيع أن تخضع الأمم ، وأن تجمعها فى سلطان سياسى واحد ، لا تستطيع أن تزيل ما بينها من تفاوت فى مقوماتها الأساسية . والتطور وحده هو الذى يُحَوِّل الأمم إلى غير حالها ، بعد أن تكون قد ثبتت على هذه الحال الأجيال والقرون . فكيف كان هذا التحول ، وإلى أى مدى بلغ فى عهد عمر ، وماذا كان اتجاهه من بعده ؟

عد بالذاكرة إلى ما سجله المؤرخون من محاورات قيل إنها حدثت بين سفراء المسلمين وكسرى يزدجرد وقائده رستم ، وبين خالد بن الوليد وجرجة القائد الرومى فى غزوة اليرموك ، وإلى ما كان قبل ذلك من مثل هذه المحاورات بين نجاشى الحبشة والمسلمين الذين هاجروا إليها . لقد كان محور هذه المحاورات ومداها أن العرب كانوا ضعافاً لانحلال الروابط

بين شتى أممهم ، أذلةً يتحكم غيرهم من الأمم فى مصيرهم ، فقراء يقتلهم الجهد فى سبيل العيش ، فلما أرسل الله رسوله إليهم بالإسلام اجتمعت كلمتهم ، وشبعوا من جوع ، وعزّوا بعد ذلة . ولا ريب أنه قد حدثت محاورات من هذا القبيل ، إلا تكن على الوجه الذى فصّله المؤرخون فعلى وجه آخر لا يختلف فى جوهره عنه . فالرسالة الجديدة للإسلام كانت إذاً موضع التفكير فى كل مكان ذهب إليه المسلمون ، وانتصارُ العرب الذين آمنوا بهذه الرسالة كان حجة صلاحِها نظاماً للحياة الروحية وللحياة الاجتماعية . وحيثما انتشرت فكرة بين الناس ، واستحوذت على الشعور العام ، خلّفت أثراً يقوى أو يضعف بحكم الأحوال التى تنتشر الفكرة فيها . وعلى قدر قوته أو ضعفه ترسخ الفكرة فى النفوس حتى تبلغ منها مكان الإيمان ، أو تتبخّر شيئاً فشيئاً حتى يجر النسيان عليها ذيل العفاء .

كانت الأحوال التى أحاطت بالفكرة الإسلامية ، فى البلاد التى غزاها المسلمون ، كفيلة بأن تجعل هذه الفكرة على كل لسان وفى كل مجتمع . ذلك بأن الأساس الروحى الذى قامت الفكرة عليه كان بسيطاً كل البساطة ، خالياً من كل تعقيد ؛ وأن النظام الخلقى الذى تفرّع عن هذا الأساس كان سامياً غاية السمو ، يأخذ بهاؤه بالأبصار ؛ وأن النظام الاجتماعى فى الإسلام لم يكن دون النظام الخلقى والأساس الروحى بساطة وسموًّا . وكانت الفكرة الإسلامية فى أساسها ونظُمها لا تزال يومئذ فى صفاء جوهرها ، لم يجن عليها الجدل المذهبى ، ولم تحجب تفاصيلُ الجدل ضياء الجوهر عن الأنظار . فلما تغلغل المسلمون فى أحشاء العراق والشام ، وانتشروا فى فارس ومصر ، تسير أعلامهم أمامهم مظفّرة قاهرة ، لم يكن لأهل البلاد التى انتشروا فيها بد من التفكير فى سر هذا الظفر وفى مردّه إلى الفكرة الإسلامية .

هذا ، ثم إن الخلاف على المذاهب المسيحية وعلى المذاهب المجوسية كان قد بلغ أعظم مبلغ ، وكان الناس فى بعض البلاد يسامون بسبب هذا الخلاف ألواناً من البطش تزعزع عقيدة فريق وتفتنه عنها ، وتزيد فريقاً تعصباً لهذه العقيدة وتضحية فى سبيلها ؛ فكان ذلك داعياً آخر للتفكير فى الدين الجديد وما ينطوى عليه .

يضاف إلى ما تقدم أن المسلمين لم يُكرهوا أحداً من أصحاب المذاهب المختلفة المسيحية أو المجوسية على الإسلام ، بل جعلوا حرية العقيدة أساس دعوتهم ، فكان لذلك من بالغ الأثر فى نفوس المتعصبين لمذهبهم والمستضعفين الذين فُتِنوا عنه ما جعل الكثيرين ينظرون إلى هذا الدين الجديد وأهله نظرةً خالية من الحقد والكراهية . ولا حاجة بى إلى

العود للحديث فى ذلك وهو مجلّو فى الكتاب . وأنت قد رأيت كيف نصّت جميع المعاهدات التى عقدها المسلمون ، مع أهل الشام والعراق وفارس ومصر ، على احترام كل ملة فلا يُفتَن صاحبها عنها ، واحترام كل معبد فلا يمس بسوء . ثم رأيت ، فيما رويناه مما حدث بمصر ، إلى أى مدى بلغ المسلمون فى حمل أهل المذاهب المختلفة على احترام كل مذهب ، وعدم التعرض لأهله بأذى . طبيعىٌّ وهذه هى الحال أن ينظر أهل البلاد المفتوحة إلى الدين الجديد وأهله نظرةَ تقدير ، وأن يُكبروا هؤلاء الفاتحين الذين أقاموا العدل بين الناس بالقسط .

وزاد أهلَ البلاد المفتوحة تفكيراً فى الدين الجديد وما ينطوى عليه أن المعاهدات التى نصّت على حرية العقيدة فرّقت بين من أسلم ومن لم يسلم من أهل هذه البلاد . فعلى الذين استمسكوا بدينهم ومذهبهم أن يؤدوا للفاتحين الجزية لقاء منعهم لهم وحمايتهم حرية عقيدتهم . أما من أسلم مِن أهل هذه البلاد فقد سقطت عنه الجزية ، وساوى المسلمين الفاتحين ، فصار له ما لهم ، وعليه ما عليهم ؛ يصلى فى جماعتهم ، وينضم إلى صفوفهم فى القتال ، ويرتبط معهم بآصرة النسب ، ويشاركهم فى المغانم ما أحسن البلاء فى المعارك . أما ومبادئ هذا الدين سليمة سامية ، وللذين يدخلون فيه كل هذه المزايا ، فلا جرم قد انضم إليه فى عهد عمر عدد إلا يكن عظيماً فى البلاد التى لا تتكلم العربية فلم يتذوّق أهلها كلَّ جماله وسموّه ، فقد كان لإسلام هذا العدد ومساواتهم للفاتحين أثر حمل غيرهم على التفكير فى أمر الدين الجديد ، وهوى بنفوس الكثيرين ، ممن فهموا قواعده ونظامه ، إلى الدخول فيه والإيمان به .

ثم إن اتصال العرب الفاتحين بأهل العراق وأهل الشام وبالفرس والروم والمصريين ، قد كان له من الأثر ما لكل الحروب ، إذ تخرج الألوف وعشرات الألوف من أهل الأمم المختلفة عن مواطنهم ، وتريهم ألواناً من العيش لم يكونوا يعرفون ، وتفتح بذلك أمامهم آفاقاً من التفكير والنظر كانت محجوبة عنهم لبعدها عن مواطن إقامتهم . ولا يزال المؤرخون يتحدثون عما كان للحروب الصليبية من أثر فى علاقات الشرق والغرب ، وعما حدث بعد غزو الترك أوربا واستيلائهم على القسطنطينية ، من اتجاه الحضارة الغربية كلها وجهة جديدة أدى إليها بعث العلوم والفنون الإغريقية وانتشارها فى أنحاء أوربا المختلفة . وقد كان للفتح الإسلامى مثل هذا الأثر من أول عهده . فكما أدى اختلاط العرب بالأمم التى فتحوها إلى تفكير هذه الأمم فى الدين الجديد ، كذلك أدى

إلى إعجاب العرب بحضارة الفرس والروم والمصريين ، وإلى انفساح الأفق الفكرى أمام هؤلاء وأولئك ، وامتثاله عناصر جديدة نقلت التفكير العربي فى الحياة المدنية ، وتفكير أهل البلاد المفتوحة فى الحياة الروحية والمعنوية ، خطوات فسيحةً قربت بين عقلية الجميع ، وإن لم تمحُ الفوارق الطبيعية التى صاغت البيئات فيها هذه العقليات المختلفة .

وقد رأيت أثر ذلك فى إسلام من أسلم من الفرس والروم ، وفى إقبال العرب على النهل من أنعم الحياة بعد أن يسّرت لهم مغانم الحرب هذا النهل . صحيح أن الأمم المفتوحة ، وإيران خاصة ، قد بقيت فى نفوس أهلها حفائظ على الفاتحين كانت تثيرهم بهم الحين بعد الحين . لكن هذه الحفائظ لم تكن لتقف التفاعل الطبيعى وما أدى إليه من تطور فى عقلية الغالبين والمغلوبين على سواء ، وَتَحوُّل نظرتهم إلى الحياة عما كانت عليه ، ولم تقف ما أدى هذا التطور إليه من تقارب فى هذه النظرة لم يكن أثره بادياً للعيان فى عهد عمر ، ولكنه مع ذلك كان يعمل دائباً ، فيؤدى عمله إلى ظهور هذا الأثر بعد سنوات معدودة ؛ إذ يتخذ على بن أبي طالب من الكوفة عاصمته ؛ ثم يتخذ معاوية بن أبي سفيان من دمشق عاصمته ، ثم تدخل مذاهب التفكير التى أقامتها الفلسفة الإغريقية فى العقلية العربية ثم يدخل الفن الفارسى ونظام الحكم الفارسى فى الحياة الإسلامية ، وينتهى بأن يجعل من بغداد عاصمة العالم .

كان هذا التطور يسير حثيثاً فى عهد عمر ، وإن لم يبدُ أثره ظاهراً للعيان . وكان سيره هذا يمهِّد لحضارة جديدة تجمع فى كنفها دين المسلمين ، وفلسفة الإغريق والفرس والمصريين ، وعلومهم وفنونهم وآدابهم ؛ ويمهد بذلك لنظام جديد فى الحياة يشمل مناحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية ، ويصوغها فى حياة الجماعة العامة وفى حياة الأفراد الخاصة .

لم يظهر أثر هذا التطور واضحاً للعيان فى عهد عمر لأن العرب كانوا فى شغل عن التفكير فى أمره بما هم فيه من لقاء عدوهم وقهره ، ولأن الأمم المغلوبة على أمرها نسيت التفكير فى أى شىء إلا فيما نُكبت به من هزائمها . وأنت لذلك قلّما تجد فى كتب المؤرخين الأوّلين وقفات تصوّر هذا التطور فى النفسية الإنسانية ؛ فإذا عثرت بشىء من ذلك وجدته دفيناً لا يكاد يظهر ؛ لأن سرد الحوادث طغى عليه فأغرقه فى لجّته . على أن سرد الحوادث لا يدع عندنا مجالا للريب فى قيام هذا التفاعل من عهد الفتح الأول .

فقد أحصى المؤرخون مغانم المسلمين فى المعارك التى حدثت فى عهد عمر ، وذكروا

ألوانها وكثرتها وبَهْر العرب لمرآها وفتنتَهم بها ، كما ذكروا مخاوف عمر أن يبلغ المسلمون من الافتتان بهذه المغانم مبلغاً ينسيهم المبادئ التى أظفرتهم بعدوهم ، فتتغير نفوسهم ، فيغير الله ما بهم ، كذلك رووا ما كان من تنافس البصرة والكوفة ، ومن اختلاف القبائل العربية التى أقامت فى كلتا المدينتين . وهذا كله ، وما حدث من اختلاط العرب والعجم ، يثبت عندنا اليقين بأن ما قام من بعدُ من نضال بين الخلافة والملك ، وما شاع فى الجماعة الإسلامية من ألوان الترف الفنى والفكرى ، وما نشأ عن هذا التطور منذ العهد الأول مما جعل البلاد التى فُتحت فى عهد عمر منازل الإسلام ومدارس الفقه فيه ، كل ذلك قد كان له أثره فى قيام الحضارة الإسلامية ، وكان له أثره فى عظمة الإمبراطورية فى القرون الأولى ، كما كان عظيم الأثر حين بدأت عوامل الانحلال تدب فى كيان الإمبراطورية .

كيف يؤدى تفاعل عوامل بذاتها إلى آثار متناقضة ، فيكون سبباً فى قيام الإمبراطورية وعظمتها ، ثم يكون سبباً فى تدهورها وانحلالها ؟

الجواب عن هذا السؤال يصدُق على الإمبراطورية الإسلامية ، وعلى غيرها من الإمبراطوريات . فكمُّ هذه العوامل ومبلغُ تفاعلها يختلفان فى زمن عنهما فى زمن آخر . وهذا الاختلاف يؤدى إلى تباين النتائج . ذلك أمر طبيعى نشهده فى الظواهر الاجتماعية كما نشهده فى الظواهر الطبيعية . فكما يؤدى اختلاف الأنواع والمقادير فى العناصر الكيميائية إلى اختلاف تفاعلها وما يترتب على هذا التفاعل من نتائج ، كذلك يؤدى اختلاف الكم والنوع فى العناصر الاجتماعية إلى مثل هذه النتيجة . فإذا زادت القوى المعنوية فى الجماعة سواء أكانت هذه القوى روحية أم خلقية أم عقلية ، أدى تفاعلها مع القوى المادية إلى سمو الجماعة وعظمتها . ذلك بأن القوى المعنوية هى التى تدفعنا إلى طلب الكمال الإنسانى وإلى الدأب فى سبيله . والجماعة مع ذلك لا غنىً لها عن قواها المادية ومضاعفة نشاطها . وهذه القوى تزداد نشاطاً وإنتاجاً بدافع من القوى المعنوية . فإذا ضعفت معنوياتنا ضعف نشاطنا المادى ، وتضاءل إنتاجنا .

وقد أشرنا غير مرة فى هذا الكتاب إلى سموّ القوى المعنوية عند العرب ، بعد أن حطم الإسلام فى نفوسهم قيود الوثنية ، وبعد أن جمع كلمتهم حول عقيدة واحدة ولواء واحد . وكان لتغلب المسلمين على الأسدين ، فارس والروم ، أثر صالح كذلك فى البلاد التى فتحوها . ذلك أن دسائس البلاط كانت السبب الجوهرى فى اضطراب أمور الفرس وفى سوء حكمهم ، وأن الاضطهاد الدينى كان السبب الجوهرى فى سوء حكم الروم للشام

ومصر. فلما تغلب المسلمون على العراق وعلى فارس ، لم يبق للبلاط وجود فلم يبق للدسائس البلاط موضع ؛ ولذا شُغِل كل أمير بإمارته ، وحرص على أن يحسن سياستها حتى لا يتعرض لغضب ولاة المسلمين وغضب أمير المؤمنين . وشعر أهل العراق والفرس بتفوق المسلمين عليهم لعدلهم فى حكمهم ، وأدركوا بالسليقة أنهم إن لم يظهروا للمسلمين خير صفاتهم لم يقف هوانهم ولم تقف مذلتهم عند ما نزلت الهزيمة بهم إليه ، بل تدلّوا فى أعين الفاتحين إلى شر من ذلك مكاناً ، وباءوا بازدرائهم وتحقيرهم . لهذا بدءوا يُبرزون خير ما عندهم من تُراث قومهم ، وخير ما ورثوا من صفات آبائهم فى تجويد الفنون والعلوم والصناعات ، وكل ما كانت لهم فيه اليد الطولى مما لم يكن العرب يستطيعون مجاراتهم فيه .

وكذلك فعل أهل الشام وأهل مصر ، فقد زال الاضطهاد الدينى بعد فتح العرب بلادهم ، وزالت بذلك أسباب امتعاضهم وثورتهم ، وما كان ينشأ عن هذا وذاك من سوء الحكم واضطراب الأمور بينهم . عند ذلك بدءوا يظهرون خير الصفات التى ورثوها عن آبائهم فى التجارة والزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، فبرزت القوى السليمة التى وهبتها لهم الطبيعة وجعلت تنشط وتنتج خير ثمراتها .

أدّى هذا كله إلى نوع من الاستباق إلى المكرمات وإلى المجد وإلى اعتماد كل جماعة على أفضل مواهبها ، لتبلغ خير ما تستطيع من احترام الأمم المكونة للإمبراطورية معها . وطبيعىٌّ أن يؤدى الاستباق فى هذا المضمار إلى عظمة المجموع ، أى إلى عظمة الإمبراطورية وجلال مكانها فى العالم .

كان أمراء المؤمنين يباركون على هذا النشاط الجم فى أرجاء الإمبراطورية المختلفة ، وينظرون إليه بعين الرضا ، ويرجون منه المزيد . وكانت مبادئ الحرية والإخاء والمساواة التى سنّها الإسلام تقرِّب بين العاملين الدائبين فى هذا النشاط ، مع ما كان من اختلاف أصولهم ولغاتهم وعقائدهم . وزاد دخول الكثيرين من أبناء الأمم التى رف عليها لواء الإمبراطورية الناشئة فى الدين الجديد فى هذا التقريب ، حتى كاد يدمج هذه الأمم فى وحدة منسجمة تسعى كل أطرافها إلى غاية مشتركة ؛ هى عظمة الكل ، وعظمة كل جزء من أجزائه .

أدّى هذا النشاط الجم إلى تنافس الأمم التى تكونت منها الإمبراطورية تنافساً زاد الإمبراطورية اندفاعاً إلى التوسع والعظمة . وكيف لا تندفع فى هذه السبيل وعوامل الوحدة والانسجام تزداد بين هذه الأمم قوة على مر الأيام والسنين ! فلم يَحُلْ ما قررته مبادئ الإسلام من حرية العقيدة ، وأنه لا إكراه فى الدين ، دون إقبال الأكثرين من أهل مصر والشام

والعراق وفارس على النظر فى الدين الجديد ، ودخولهم فيه أفواجاً عن رضا وبينة .

وكان لدخولهم فى الإسلام أثر بالغ فى تعزيز وحدتهم ؛ لأن الإسلام لا يتناول العقيدة وكفى ، بل هو يتجاوز الميدان الروحى إلى الميدان الخلقى والميدان الاجتماعى ، ويفرض على الآخذين به نُظُماً فى الأخلاق وفى التشريع تختلف فى جوهرها عن النظم المسيحية والمجوسية ، كما تختلف عن النظم الجاهلية التى كانت سائدة فى شبه الجزيرة قبل مبعث النبى العربى .

واتفاق القيم الأخلاقية فى جماعة ما من شأنه أن يجمع أطرافها فى وحدة تزيد أهلها تعارفاً وتآلفاً . فاتفاق الجميع على المعروف والمنكر ، وعلى الخير والشر ، وعلى الحرام والحلال ، يبعث فى كيان المجموع من الانسجام ما يزيد فى قوته المعنوية ، ويزيد تبعاً لذلك فى نشاطه المادى . فإذا صدر هذا الاتفاق عن أصل واحد هو العقيدة ، فآمن الجميع بأنهم مسئولون أمام الله خالق كل شىء ، يجزيهم عن أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كان ذلك سبباً فى اتساق الانسجام ، وازدياد الوحدة قوة بقدر هذا الاتساق . ولا ريب أنه قد حدث هذا الانسجام . واتّسق فى أرجاء الإمبراطورية كلها بعد أن سكن أهل الأمم المفتوحة إلى حالهم الجديدة ، ونظّموا حياتهم فى ظلالها .

وزاد الانسجامَ اتساقاً والوحدةَ قوة أن تجاوز الإسلام ميدان العقيدة وميدان الأخلاق إلى ميدان التشريع ، وأن أذعن المسلمون فى مختلف الأرجاء من إمبراطوريتهم الفسيحة إلى ما جاء فى كتاب الله عن نظام الأسرة ، وعن الميراث ، وعن التنظيم الاجتماعى والاقتصادى لكثير من شئون الحياة . صحيح أن ما نُصَّ عليه فى القرآن من هذه الشئون لم يزد على المبادئ العامة ، لكن هذه المبادئ العامة فى التشريع كانت ذات أثر بالغ فى توجيه تفاصيله ؛ كما أن تطبيق العرب لها ، عن طريق القضاء فى أرجاء الإمبراطورية ، قد زاد فى هذا الأثر ، وأدّى إلى وحدة فى التشريع اطّردت فى الأجيال الأولى من حياة الإمبراطورية . وزاد فى اطرادها أن التشريع الإسلامى ، وقواعد الخلق الإسلامية ، وقواعد الإسلام فى العقيدة ، كانت تعد فى ذلك العهد وحدةً لا انفصام لها ، فزاد ذلك فى اتساق الانسجام ، وفى قوة الوحدة التى انتظمت أجزاء الإمبراطورية كلها .

وكان طبيعيًّا ، والقرآن كتاب الله وأساس هذا الدين ، أن يتعلم الناس فى البلاد المفتوحة لغة القرآن ، ليزدادوا فقهاً فى دينهم ، وليعرفوا لغة حكامهم . والعقيدة واللغة قوتان بالغتا الأثر فى توحيد من يشتركون فيهما ، وفى تعاونهم وتآلفهم . ولا أرانى بحاجة إلى إقامة الدليل على هذا الأمر ونحن نرى فى عصرنا الحاضر وحدة الأمم اللاتينية ، وجماعة الأمم

التى تتكلم الإنجليزية ، وتضامن الأمم المسيحية ، وهلم جرًّا . هذا مع أننا فى عصر تقررت فيه مبادئ الحرية بأوسع مما كانت فى القرن السابع المسيحى ، وهدى العلم فيه إلى أسباب الوحدة ، إذ ضيق نطاق العالم على نحو لم يكن يدور بخلد أحد فى ذلك الزمان .

أدرك كثيرون ممن أرخوا لذلك العهد الأول من عهود الإمبراطورية الإسلامية ، ما كان لانتشار الإسلام وانتشار العربية من أثرٍ بالغ فى قيام هذه الإمبراطورية وفى قوتها ؛ ولهذا تساءل بعضهم : لِمَ لَمْ يفرض الفاتحون دينهم ولغتهم على البلاد المفتوحة ؟ وظنوا أنهم لو كانوا قد فعلوا لما دبّت من بعد عناصر الانحلال فى هذه الإمبراطورية . وأحسبنى فى غنى عن تفنيد هذا الظن وإدحاضه . وليس يرجع ذلك إلى أن من إضاعة الوقت مناقشة فرض لم يحدث ، فمناقشة أمثال هذا الفرض جليلة الفائدة فى هداية الإنسانية طريقها خلال المستقبل ؛ وإنما يرجع إلى أن هذا الظن فاسد الأساس . فلو أن العرب أكرهوا الأمم التى فتحوها على دينهم وعلى لغتهم لما قامت الإمبراطورية إلا لتنهار . ذلك بأن كل اجتماع لا يُقبل الناس عليه أحراراً مختارين سرعان ما ينفضّ ، وكل نظام يستند إلى القسر يؤدى إلى بَرَم الناس به وانتقاضهم عليه . فلو أن المسلمين أكرهوا الأمم المفتوحة على الإسلام لما أغنى ذلك عنهم ، ولكفرت الأرض بهم وانتقض الناس عليهم ، ولما استطاعوا أن يقيموا حكمهم فى هذه البلاد ، على أساس غير البطش . والحكم القائم على البطش حكم سريع الزوال . وقد رأينا ، ورأى المسلمون الأولون ، ما أصاب هرقل حين أراد أن يفرض مذهباً مسيحيًّا موحَّداً على أهل المذاهب المسيحية المختلفة . ثار الناس به وبعمّاله ثورة انتهت بفراره من الشام أمام قوات المسلمين ، وبفتح المسلمين مصر وضياعها من إمبراطوريته .

فأما إذا أقبل الناس على عقيدة من العقائد ، فدخلوا فيها أحراراً مختارين ، فإن هذه العقيدة تصبح بعض حياتهم ، ويصير لها فى قلوبهم من القداسة ما يحملهم على الدفاع عنها ، والتضحية بالروح فى سبيلها . فهذا الذى صنعه المسلمون الأولون تنفيذاً لمبادئ دينهم ، من حرية العقيدة وعدم الإكراه فى الدين ، كان الحكمة كل الحكمة وهو الذى دفع الإمبراطورية الإسلامية إلى التوسع والعظمة .

والأمر فى اللغة كالأمر فى الدين ، إن لم يُقبل الناس عليها راغبين مختارين ، مقدرين ما فى تعلمها من فائدة جليلة ، أخفقت كل محاولة لحملهم على تعلمها ، بَلْه التكلم بها .

كانت الحرية التى كفلها المسلمون لأهل البلاد المفتوحة فى أمر العقيدة بعض ما دعا الفرسَ والرومَ وغيرَهم للإقبال على الإسلام ، وعلى اللغة العربية . وزاد فى إقبالهم ما فرضه

الإسلام من المساواة بين المؤمنين به على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم ، وما قرره من أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ومن أن المؤمنين إخوة ؛ فلا يكمل إيمان أحدهم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه . فهذا الإخاء وهذه الحرية والمساواة أدت كلها إلى انتشار جو ضاعف من قوة الوحدة فى الإمبراطورية ، وتضاعف فى ظله نشاط كل جزء من أجزائها .

وأنت مع ذلك تستطيع أن تميِّز ، فى عصور الإسلام الأولى أو فى العصور التى تليها ، نصيب كل جزء من هذه الأجزاء فيما أثمر نشاطها جميعاً من آثار عظيمة فى الفقه ، والأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والصناعة ، والزراعة ، وكل مظاهر الحياة المعنوية والمادية . ذلك بأن لكل أمة طابعاً أنشأته البيئة ، وثبت على الزمان بحكم الوراثة . وهذا الطابع يبدو واضحاً فى الفنون والآداب وألوان التفكير المختلفة ؛ وهو لا يخفى فى الصناعة والزراعة وغيرهما من آثار الحياة المادية . وتاريخ الأدب العربى يحدثنا عما أدخله الفرس والروم ، فى مذاهب الكتابة والتفكير ، من صور وألوان لم تكن مألوفة عند العرب من أهل شبه الجزيرة ، وذاك مع أن الفرس والروم تعلموا العربية عن أهل شبه الجزيرة . ولا عجب ، فاللغة كائن حى يساير الوسط الذى يعيش فيه . وهى ، بحكم أنها الأداة لإبراز التفكير والتصور الإنسانى ، تتأثر فى أساليبها وفى قوالبها بما تؤديه من متباين ألوان التفكير والتصور . لذلك كان طبيعيًّا أن تتأثر اللغة العربية بالصور والألوان التى ألِفها الفرس والروم فى ثقافتهم وفى تفكيرهم ، وأن يدخل على أساليبها فى الشعر والنثر ما يؤدى هذه الأغراض .

كان للألوان الجديدة ، التى أدخلها الفرس والروم فى الفن العربى والأدب العربى ، أثر واضح فى العرب أنفسهم . وأنت ترى هذا الأثر ملموساً فى اختلاف مذاهب البصريين والكوفيين فى اللغة ، اختلافاً لا يزال مؤرخو اللغة والأدب يذكرونه إلى وقتنا الحاضر . وإنما نشأ هذا الخلاف لأن البصرة والكوفة فى العراق ، فهما تجاوران فارس ؛ وطبيعى أن يتأثر أهلهما بهذا الجوار ، وبما يجلبه إليهم من ألوان الثقافة الفارسية ، ولا عجب فى أن تكون إحدى المدينتين أكثر محافظة على عربيتها ، وأن تكون الثانية أكثر حرية فى امتثال الثقافة الفارسية .

لم يكن الطابع القومى واضحاً فى الحياة المعنوية وحدها ، وفى مظاهر هذه الحياة من فن وعلم وأدب ، بل إنك لتقرأ الكثير عن آثار هذا الطابع فى الحياة المادية . فبرود اليمن ، وحرائر دمشق ، وقباطى مصر ، هذه وأمثالها من الألوان المتميزة فى الصناعة والاقتصاد بتميز

البيئة ، تشهد ببقاء هذا الطابع ، وبأن ما حدث من وحدة الإمبراطورية لم يكن ليمحوه أو ليزيل آثاره .

على أن وضوح الطابع القومى فى مظاهر الحياة المعنوية والمادية المختلفة ، لم يجن فى قليل ولا كثير على وحدة الإمبراطورية فى عصورها الأولى ؛ فقد اتّسقت قوى الإمبراطورية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ونشأ عن هذا الاتساق تزاوج بينها أنتج من الثمرات ما ربط بين أجزاء الإمبراطورية كلها بأوثق رباط . تزاوجت الفلسفة الإغريقية والثقافة الفارسية فى ظل التوحيد الإسلامى فأنتج هذا التزاوج الفلسفة الإسلامية. وتزاوج الخيال الفارسى والفن البِزَنطى باللغة العربية ، فأنشأ فى الشعر والنثر العربى ألوان الأدب الإسلامى . وتزاوج فن الزخرفة الفارسى والعمارة البزنطية ، فكانت العمارة العربية ثمرة هذا التزاوج . وامتد التزاوج إلى مرافق الحياة فى أرجاء الإمبراطورية كلها ، فأنشأ خلقاً جديداً كان يزداد على الأيام والسنين قوة وازدهاراً ، وكان يتقدم الفتح العربى ثم يسايره ، وكان يبسط على أرجاء العالم القريبة والبعيدة سلطانه ، وكان أبقى من الفتح العربى أثراً وأقوى أصولا وأغزر فروعاً ؛ هذا الخلق الجديد هو الحضارة الإسلامية .

وفى ظل هذه الحضارة ترعرعت الإمبراطورية فى القرون الأولى على نحو بهر العالم ، وشدَّ إليها الأنظار من كل جانب . وكان من أثر ذلك أن نسى الناس فى أرجائها الواسعة فوارق القومية ؛ ولم يذكروا إلا أنهم مسلمون ، وأنهم إخوان تربط بينهم مبادئ الحرية والإخاء والمساواة المقررة فى الإسلام ، ويقوم الحكم بينهم على أساس من العدل والتقوى . ولهذا كانوا يُصْهِر بعضهم إلى بعض ، يتزوج العربى من بنات فارس أو العراق أو الشام أو مصر ، ويتزوج المسلمون من أهل هذه البلاد العربيات . وكذلك أقامت لحمة الدم والنسب صلات المودة بين المسلمين جميعاً ، ومحت من نفوسهم معانى التعصب القومى والجنسى ، وبثّت فى وحدة الإمبراطورية روحاً زادتها قوة وزادت أبناءها إقبالا على الإنتاج المعنوى والمادى ، ورفعت بذلك من صرح الحضارة الإسلامية .

ظلت هذه الحال أجيالا متعاقبة . وكان لتفاعل العوامل التى اختصت بها كل واحدة من أمم الإمبراطورية أبلغُ الأثر فى توجيه حضارة العالم فى الشرق والغرب . وإذ كانت القوى الدافعة لتفاعل هذه العوامل والموجهة لها بالغة السلطان ، فقد استجنَّت عوامل الفرقة والضعف خلال هذه الأجيال وتقلص أثرها ، فإذا بدا من هذا الأثر شىء أسرعت القوى الدافعة للقضاء عليه . وقد رأينا صورة من ذلك فى مقتل عمر . على أن استجنان هذه

العوامل لم يقض عليها قضاء ينتهى إلى فنائها ، بل بقيت كلها فى مكامنها بقاء جراثيم المرض فى الجسم الصحيح ، إذا حاولت النشاط أو البروز غلبتها أسباب الصحة ، فردّتها إلى أوكارها وخلاياها ، فلم يشعر صاحبها نفسه بوجودها ولا بقدرتها على أن تنشط إذا ضعفت أسباب الصحة . وفى ظل هذه القوى الدافعة كان أبناء الشام أعواناً للعرب المسلمين فى عهد بنى أمية ، وكان الفرس أعواناً أقوياء للعباسيين من قرابة رسول الله ، وكان المصريون يظهرون على مسرح السياسة الإسلامية فى أدق المواقف ، ثم كان لظهور هؤلاء ومعاونة أولئك أثر بالغ فى إسراع الإمبراطورية إلى النماء والقوة ، وإلى بقائها متماسكة الأجزاء ، حتى آن للزمن أن يدور دورته ويفعل فعله .

وإنما بدأت دورة الزمن حين ضعفت القوى الدافعة لتفاعل العوامل التى اختصت بها كل واحدة من أمم الإمبراطورية ، تفاعلا يزيد فى نماء الإمبراطورية وفى سلطانها . ومع أن عوامل الفرقة والضعف كانت تبرز من أوكارها وخلاياها منذ العهد الأول حيناً بعد حين ، فقد كانت ترتدّ ناكصة على أعقابها ، متراجعة أمام أسباب الصحة الجارية فى كيان الإمبراطورية . على أنها كانت كلما ظهرت تركت وراءها أثراً يتحدث الناس عنه حيناً ، ثم لا يلبث جلال الحوادث المحيطة بهم أن ينسيهم إياه .

وكان مقتل عمر أول أثر ظاهر لبروز عوامل الفرقة من مكامنها . فلما تولى عثمان ، وقضى على الفتنة التى كادت تنجم حين قتل عبيد الله بن عمر من اقتنع بأنهم ائتمروا بحياة أبيه ، انصرف الناس إلى حياة الغزو والفتح وإلى تثبيت قواعد الإمبراطورية .

وبعد ست سنوات من خلافة عثمان بن عفان ، عاد الخلاف القديم بين بنى هاشم وبنى أمية ، فظهر بعد استتاره وبرز من مكمنه . ذلك أن عثمان آثر ذوى قرابته بمناصب السلطان ، فألّب خصومُه المسلمين فى أرجاء الإمبراطورية المختلفة عليه ، واتخذوا من تصرفاته فى هذا الأمر وسيلة للتشنيع عليه . وانتهى التأليب إلى الفتنة ، وكان للمسلمين المقيمين بمصر أثر أى أثر فيما أدت هذه الفتنة إليه من قتل عثمان . فلما قضى الخليفة الشيخ نحبه ، وبويع علىّ بن أبى طالب بالخلافة مكانه، طالب بنو أمية بدم عثمان، ثم أثاروها فتنة عمياء للثأر . وانقسم المسلمون فى أرجاء الإمبراطورية : ينصر فريقٌ بنى هاشم ، وفريق بنى أمية .

انتهت هذه الفتنة بمقتل علىّ وابنه الحسين ، فتولى بنو أمية أمر المسلمين ولم تصدّع هذه الفتنة بناء الإمبراطورية ، وإن هزته هزًّا عنيفاً ، لأن هذا البناء كان متيناً قوى

الأركان ، ولأن عوامل الفرقة كانت لا تزال ضعيفة ، إذ كانت البلاد المفتوحة لا تزال تنوء بعار هزيمتها ، وبأسباب الضعف التى ورثتها عن حكامها السابقين . لذلك لم يلبث بنو أمية حين استقر لهم الأمر ، أن عادوا يتابعون سياسة الفتح التى بدأها الخلفاء من قبلهم ، فعادت عوامل الفرقة إلى مكامنها ، واستمرت أمم الإمبراطورية تتعاون فى تشييد الصرح العظيم ، صرح الحضارة الإسلامية .

على أن هذه الفتنة طوّعت للأمم المفتوحة أن تسترد حيويتها ، وأن تكيف اتجاهها فى ظل الحضارة الجديدة تكييفاً يكفل لأصحابها السلطان . وكان الفرس أبرع هذه الأمم وأسرعها إلى بلوغ هذه الغاية ؛ فقد رأوا بنى هاشم حريصين على الثأر لعلىّ وللحسين ولمن نكبهم فيه بنو أمية ؛ فصور مفكرو الفرس مبدأ الإمامة والإمام تصويراً استهوى ألباب أهل فارس والعراق ، فتشيعوا لعلى وأنصاره ، وظاهروا أبا مسلم الخرسانى مظاهرة انتهت بانتصار العباسيين على بنى أمية ، وبنقل العاصمة من دمشق إلى بغداد .

استقر الأمر للعباسيين فاتخذوا من الفرس وزراءهم والمشيرين عليهم ، فكان لهم فى الحياة الإسلامية أثر بالغ . وحسبك لتقدر هذا الأثر أن تذكر ما حدث فى هذا العهد . ففيه جمعت الأحاديث المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ونقلت الفلسفة الإغريقية إلى العربية ، وبرع من الفرس فى النثر والشعر من نقلوا إلى لغة القرآن ألواناً من الثقافة الفارسية ، وازدهرت العلوم والفنون والآداب ازدهاراً لفت أنظار العالم كله ، ولقّحت هذه العلوم والفنون بما أنتجته عبقرية كل واحدة من أمم الإمبراطورية . بذلك عظم مقام الحضارة الإسلامية ، فوجهت العالم أجيالا وقروناً .

وكان من نتائج هذا الازدهار أن تعدّدت مذاهب التفكير وألوانه فى علوم الكلام والفقه ، وفى الأدب واللغة ، وفى أساليب السياسة والحكم ، وفى كل مظهر من مظاهر الفكر وأثر من آثاره . ونشأ عن ذلك أن استطاعت كل أمة أن تصبغ تفكيرها الإسلامى بطابعها القومى ، وأن تذيع هذا التفكير فى أرجاء الإمبراطورية ، وأن تجد من يسيغ هذا التفكير لأنه اصطبغ باللون الإسلامى وكتب باللغة العربية . بهذا استردت كل أمة شخصيتها مصبوبة فى قالب عربى من قوالب الحضارة الإسلامية ، وآن لكل أمة أن تصبو إلى مكان السلطان من الإمبراطورية ، فإن لم تستطعه صَبَتْ إلى الاستقلال القومى تتمتّع به فى ظل هذه الحضارة .

وكذلك انفرط نظام الإمبراطورية ، فلم تبق لها سياسةٌ موحَّدة ، غرضُها إذاعة

رسالة الإسلام فى الناس . وكذلك سادت الفكرة القومية فى السلطان والحكم . وظلت سائدة بعد أن تغلّب الترك على أجزاء الإمبراطورية كلها ، وجمعوها من جديد بحكم الفتح ، وجعلوا منها الإمبراطورية العثمانية . فقد كانت الإمبراطورية تركية قومية ، ولم تكن عربية إسلامية ؛ وكانت لذلك لاتجعل إذاعة الرسالة الإسلاميةغرضها ، بل تتخذ من الإسلام وسيلتها للمحافظة على مكانتها وعلى سلطانها .

* * *

هذه لمحة سريعة أردت بها أن أظهر تفاعل العوامل التى اختصت بها كل واحدة من أمم الإمبراطورية الإسلامية ، بعضها مع بعض فى العصور المختلفة ، وأن أبين كيف كانت سبباً فى نماء الإمبراطورية وقوتها ، وفى قيام الحضارة الإسلامية ورفعتها ، ثم كانت سبباً فى دبيب الانحلال إلى هذه الإمبراطورية . وأحسبك ترى معى أن تفصيل هذه العوامل وتحليلها ، وإبرازَ ما ظهر وما خفى من صور تفاعلها وما حدث خلال العصور من اتصالها بغيرها من الأمم والحضارات ، هذا كله ينشر فى أرجاء التاريخ ضوءاً جديداً ما أشد حاجة العالم الإسلامى ، بل ما أشد حاجة العالم كله إليه !

وقد كان للكتاب العرب والمسلمين ، كما كان للمستشرقين ، فضل عظيم فى تناول الكثير من جوانب هذا التاريخ بالبحث والتحليل . وإننى لحريص على أن أتابع الجهد لمشاركتهم فى هذا المضمار ، على الطريقة التى اتبعتها منذ كتاب « حياة محمد » وفى نيتى أن أجعل وجهتى فى الحلقة الرابعة من هذا البحث ، إلى تحليل ما حدث بين خلافة عثمان وملك بنى أمية ، مع تقديرى لدقة هذه الفترة من حياة الإمبراطورية وجلال خطرها .

والله أرجو أن يوفقنى فى هذا الجهد ، كما وفقنى من قبل ، فمنه جل شأنه الهدى وبه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كله !